التسهيل في تدبر جزء تبارك

محمد بن علي بن جميل المطري

شبكة الألوكة
www.alukah.net

التسهيل في تدبر

جزء تبارك

تأليف

محمد بن علي بن جميل المطري

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومنِ اتبعَ هُداه، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:٢٩]، أنزل الله القرآن المبارك لنتدبر آياته، ولنتذكر بآياته ما ينفعنا في ديننا ودنيانا، وبذلك نكون من أصحاب العقول الذين مدحهم الله في كتابه، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، فعلينا أن نحرص على تعلم القرآن وتعليمه، تلاوة وحفظا وتدبرا، وقد يسر الله لي إصدار كتاب التسهيل في تدبر جزء عم مع سورة الفاتحة وآية الكرسي، وهذا بفضل الله تفسير محرر مختصر لسور جزء تبارك، لخصته من أهم كتب التفسير القديمة والحديثة، لا سيما تفسير محمد بن جرير الطبري وتفسير ابن عطية وتفسير القرطبي وتفسير ابن كثير وتفسير السعدي وتفسير ابن عاشور، مع الاستفادة كثيرا من كتب ابن تيمية وابن القيم رحمهم الله أجمعين.

وقد حرصت في هذا التفسير على تقريب المعاني والفوائد، والتيسير على من يقرؤه أو يسمعه ليتدبر معاني كتاب الله، بما يثمر العلم النافع المقتضي للعمل الصالح، وأسأل الله أن يتقبل مني هذا العمل الذي وفقني إليه من غير حول مني ولا قوة، وأسأل الله أن يبارك في هذا الكتاب، وأن يجعله عونا للمسلمين على تدبر القرآن الكريم، وأن ينفع به من قرأه لنفسه أو قرأه على غيره أو درَسه أو درَّسه، ولا حقوق طباعة لي فيه، فقد وهبته لجميع المسلمين عامة، وعسى أن يُقرَّر على طلاب المدارس والمعاهد والمراكز العلمية، وجزى الله خيرا كل من يطبعه ويوزعه أو يوقفه في المساجد، والله الموفق.

تدبر سورة تبارك

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي: تعاظَم وتعالى وكثُر خيرُ الله الذي بيده التصرفُ في سلطان الدنيا والآخرة، وأمره نافذٌ بما يشاء في السماوات والأرض.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾ أي: والله على فعل كل ما يريد قادر، فقدرته كاملة، لا يمنعه مانع من فعل ما يشاء.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ أي: الذي قدَّر أن يميت الأحياء، ويحيي الموتى؛ ليختبركم بالأوامر والنواهي والمصائب فينظر أيكم المخلص في عبادته، المتبع لشرعه، وتظهر أعمالكم الحسنة والسيئة فيجازيكم عليها، والعمل الأحسن هو الخالص من الرياء، المقيد بالسنة.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ وهو القوي، المنتقم ممن عصاه، المنيع أن يناله أحد بسوء، الغفور ذنوب التائبين، وزلاتِ المؤمنين.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ أي: الذي خلق سبع سماوات بعضها فوق بعض.

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ أي: لا ترى - أيها الإنسان - في مخلوقات الرحمن من السماوات وغيرها أي اختلاف وأدنى خلل ينافي كمال حكمته وقدرته وإتقانه.

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ أي: فاردد بصرك إلى السماء متأملا في أرجائها، هل ترى فيها أي شقوق وخلل ونقص؟ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦﴾ [ق: ٦].

﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ٤﴾ أي: ثم كرر النظر - أيها الإنسان - إلى السماء مرة بعد أخرى، عسى أن تجد فيها عيبا، يرجع إليك بصرك ذليلا عن العثور عن أي نقص في السماء، وهو متعب من كثرة التأمل في السماء للبحث عن أي خلل فيها.

﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: ولقد زينا السماء الأولى القريبة من الأرض بنجوم مضيئة.

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وجعلنا النجوم رجوما للشياطين التي تسترق السمع، فتُرجم تلك الشياطين بشُهُب محرقة تنفصل من النجوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥﴾ أي: وهيأنا للشياطين في جهنم أشد الحريق، يُعذَّبون بالنار في الآخرة.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦﴾ أي: ولجميع الذين كفروا بربهم من الإنس والجن عذاب جهنم في الآخرة، وبئس مرجع الكافرين عذاب جهنم.

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾ أي: إذا قُذِف الكافرون في جهنم سمعوا لجهنم صوتا عاليا منكرا، وجهنم تغلي.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ أي: تقرب جهنم أن تتقطع من شدة غضبها على أهلها الكافرين والمنافقين والمجرمين، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: ١٢].

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾ أي: كلما قُذِف في جهنم جماعة من الكافرين قال لهم خزنة النار من الملائكة موبخين لهم: ألم يأتكم في الدنيا رسول من عند الله ينذركم عذاب النار؟!

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩﴾ أي: قال الكافرون لخزنة جهنم: بلى قد جاءنا رسول ينذرنا عذاب الله، فكذَّبنا بالله ورسله واليوم الآخر، وقلنا: ما نزل الله

على أحد من الخلق أي شيء من الوحي، وقلنا للرسل وللمؤمنين: ما أنتم إلا في ذهاب بعيد عن الحق.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ أي: وقال الكافرون: لو كنا في الدنيا نسمع الوحي الذي جاءت به الرسل أو نعقل ما فيه من الحق ما كنا في أهل النار المخلَّدين في عذابها.

﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ أي: فأقر الكافرون بذنوبهم، فبُعدا لأهل النار من رحمة الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: إن الذين يخافون الله وهم لم يروه في الدنيا، فهم يطيعون الله ويتركون معصيته في خلواتهم حيث لا يراهم الناس؛ لهم ستر من الله لذنوبهم، وثواب عظيم في الجنة على خوفهم من الله، فكل من يخاف الله له مغفرة لذنوبه، وثواب عظيم على حسناته.

﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ أي: وأخْفُوا كلامكم - أيها الناس - أو أَظهروه، فالأمران سواء عند الله، لا يخفى عليه شيء مما تسرونه أو تعلنونه، إن الله عليم بما في قلوب العباد من العقائد والنيات والأسرار والخواطر، خيرِها وشرِها، وسيجازيهم عليها.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ أي: ألا يعلم الله بمخلوقاته التي خلقها، والله هو العالم بخفايا الأمور، الموصل الخير لعباده بالطرق الخفية، الخبير بخلقه وأعمالهم الظاهرة والباطنة؟!

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ أي: الله الذي سخر لكم الأرض لتتمكنوا من المشي والبناء عليها، وغرسها، وزرعها، وحفرها، والانتفاع بخيراتها، فامشوا في نواحي الأرض وجبالها، وسافروا في طرقها؛ لطلب الأرزاق، وقضاء الحوائج، وكلوا من رزق الله الحلال الذي يسره لكم في الأرض، وإلى الله وحده لا إلى غيره مرجعكم بعد موتكم، فتُبعثون من

قبوركم يوم القيامة للجزاء على أعمالكم.

ثم خاطب الله الكافرين والعصاة فقال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ أي: أأمنتم الله الذي فوق السماء أن يخسف بكم الأرض عقوبة لكم فإذا الأرض تضطرب بكم حتى تموتوا؟

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ أي: أم أمنتم الله الذي فوق السماء أن يرسل عليكم ريحا فيها حصباء يهلككم بها؟ فستعلمون حين يأتيكم العذاب كيف إنذاري.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾ أي: ولقد كذَّب كفار الأمم الماضية رسلهم كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب وقوم فرعون، فكيف كان إنكار الله عليهم تكذيبهم حين عذبهم في الدنيا قبل الآخرة؟ كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۖ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾ [ص: ١٢ - ١٤].

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾ أي: أولم ير الناس إلى الطيور حين تطير فوقهم في الجو ناشرات أجنحتَهن غالبا، ويجمعن أجنحتهن أحيانا؟! ما يمسك الطيور في الجو حال طيرانها إلا الرحمن بقدرته ولطفه وحكمته، فاعبدوه وحده، إن الله بصير بكل شيء من مخلوقاته.

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ أي: بل من هذا الإله الذي هو حزبٌ لكم يدفع عنكم عذاب الله وينصركم على أعدائكم غير الرحمن؟

﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠﴾ أي: ما الكافرون بالله إلا في غرور عظيم باستمرارهم على كفرهم بالله.

﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾ أي: بل من هذا الإله الذي يطعمكم ويعطيكم المنافع إن منع الله ذلك عنكم؟

﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١﴾ أي: بل استمر الكافرون في طغيانهم وتكبرهم، ونفورهم عن الحق، أما المسلم المخلص فإنه لا يتكبر عن طاعة الله، ويقبل الحق.

﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾ أي: أفمن يمشي مُنكِّسا رأسه لا يرى طريقه، فهو يسقط على وجهه حينا بعد حين أهدى أم الذي يمشي معتدلا بقدميه على طريقٍ مستوٍ واضحٍ لا اعوجاج فيه؟ وهذا مَثَلٌ ضربه الله للكافر والمسلم.

ثم أمر الله رسوله أن يقول للكافرين: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ﴾ أي: قل للمشركين المكذبين بالبعث: الله وحده الذي أوجدكم من العدم، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به، والعيون التي تبصرون بها، والقلوب التي تعقلون بها، فاعبدوا الله الذي خلقكم، ولا تشركوا به شيئا.

﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾ أي: قليلا ما تشكرون الله على نعمة السمع والأبصار والعقول، فأنتم تشركون بالله، وتعصونه بما أنعم عليكم من السمع والأبصار والعقول، ولا تشكرونه على نعمه إلا قليلا.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤﴾ أي: قل: الله الذي كثَّركم - أيها الناس - في الأرض، وبثَّكم في أقطارها، وإلى الله وحده تُجمعون بعد موتكم، فيبعثكم من قبوركم للحساب والجزاء.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥﴾ أي: ويقول المشركون للنبي وللمسلمين تكذيبا واستهزاء: متى يكون البعث يوم القيامة إن كنتم صادقين فيما تعِدوننا أننا نُبعث فيه للحساب والجزاء؟

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦﴾ أي: قل - يا أيها الرسول - للسائلين عن القيامة استعجالا لها: إنما علم وقت مجيء القيامة عند الله وحده، لا يعلمه غيره، وما أنا إلا محذركم عذاب

يوم القيامة، ومبلغكم بوضوح ما أمرني الله بتبليغه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: فلما رأى المشركون عذاب الله قريبا منهم يوم القيامة، ورأوا النار بأعينهم، ساء الله بعذابه وجوه الكافرين فاسودت، وقيل للكافرين: هذا عذاب النار الذي كنتم في الدنيا تسألون الله أن يعجله لكم، لتكذيبكم بوقوعه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: قل - أيها الرسول - للكفار: أخبروني إن أماتني الله ومن معي من المؤمنين وعذبنا أو رحمنا فلم يعذبنا، فمن يمنع الكافرين من عذاب النار المؤلم وهم يكفرون بالله؟!

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: قل - أيها الرسول - للكافرين: هو ربنا الرحمن صدَّقنا بتوحيده، وعليه وحده اعتمدنا في جميع أمورنا.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي: فستعلمون - أيها المشركون - إذا نزل بكم العذاب من هو في خطأ واضحٍ بيِّنٍ نحن الذين آمنا بالله واتبعنا شرعه أو أنتم الذين كفرتم بالله ولم تقبلوا شرعه؟

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: قل - أيها الرسول - للكفار: أخبروني إن صار ماء آباركم وأنهاركم نازلا في الأرض إلى أسفل فمن يجيئكم بماء ظاهر؟ لا يقدر على ذلك أحد غير الله، فلا تعبدوا غيره، واشكروه على نعمه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨].

تدبر سورة القلم

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿نٓ﴾ هذه أول سورة نزلت مفتتحة بحرف من حروف الهجاء، مثل: ق، وص، والم، ويس، وطه، وحم، قال بعض أهل العلم: الحكمة من إيراد هذه الحروفِ في أوائل بعض السور بيانُ إعجاز القرآن، وتحدي جميعَ الخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، ويؤيده أن كل سورة افتُتِحت بالحروف المقطعة يُذكر فيها الانتصارُ للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وقيل: هي تنبيهٌ على شرف حروف الهجاء، وعظم قدرها وجلالتها، إذ هي مباني كلامِ اللهِ وكتبِه التي تكلم بها سبحانه، وقيل: هي حروفٌ لتنبيه العرب ليُقبلوا على استماع القرآن، والله أعلم.

﴿وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ أي: أُقسم بالقلم الذي كتبتُ به اللوح المحفوظ، وأُقسم بجميعِ الأقلام وما يكتب الكاتبون بها، من الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدم، والبشر الذين يكتبون بأقلامهم ما تتعلق به مصالحهم الدينية والدنيوية.

فقد أقسم الله بالقلم: تعظيما له، لما في خلقه من الدلالة على حكمة الله ورحمته بخلقه، ففي خلق الله القلم منافعُ وفوائدُ عظيمةٌ للناس في دينهم ودنياهم، فبالقلم حُفِظت أنواعُ العلوم الشرعية والطبيعية، وبه تُكتب العقودُ والمعاهداتُ وأنواعُ الخطابات، وقد دوَّن علماء الإسلام بالقلم كل العلوم الشرعية من القرآن الكريم وقراءاته وعلومه وتفسيره، والأحاديثِ النبوية وعلومها وشرحها، والسيرةِ النبوية، والأنسابِ، والتواريخِ، وأرَّخوا بالقلم تاريخَ الوفيات، ودوَّنوا بالقلم أشعارَ العرب في الجاهلية والإسلام، وكتبوا أمثالَ العرب وأخبارها، وكتبوا بالقلم كل ما يفيدهم ويفيد من يأتي بعدهم.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾ أي: لست - أيها الرسول - بسبب إنعام الله عليك بمجنون كما يزعم كفار قريش، بل أنت أكمل الناس عقلا.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣﴾ أي: وإن لك - أيها الرسول - لثوابا عظيما من الله في الجنة غير مقطوع ولا منقوص، لتبليغك رسالة الله، وعملِك الصالح، وصبرِك على أذى الكافرين.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ أي: وإنك - أيها الرسول - على أدب عظيم، وهو دين الإسلام المشتمل على مكارم الأخلاق.

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦﴾ أي: فسترى وتعلم - أيها الرسول - ويرى كفار قريش ويعلمون يقينا بأيكم الجنونُ والضلالُ عن الحق؟

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧﴾ أي: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن طريق الحق فلم يتبع دين الله، وهو أعلم بالذين اهتدوا باتباع الحق، وسيجازي كل إنسان بعمله.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨﴾ أي: كما أنعمنا عليك - أيها الرسول - بالدين المستقيم والخُلُق العظيم فلا تطع رؤساء كفار قريش المكذِّبين بالحق، الذين يدعونك إلى الشرك وترك دعوة الناس إلى دين الله.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩﴾ أي: تمنَّى مشركو قريش - أيها الرسول - لو تلين لهم في الدين، فتصانعهم بالركون إلى آلهتهم بالقول أو الفعل أحيانا أو بالسكوت عن عيب آلهتهم مجاملة لهم، فيلينون لك بحسنِ المعاملة، وتركِ العداوة، شبَّه الله التليين في القول بتليين الدهن، فعلى المسلم أن يحذر من مكر أعداء الله، ولا يداهنهم بترك شرع الله.

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾ أي: ولا تطع - أيها الرسول - كل مكثر للحلف بالباطل، حقيرٍ في أفعاله كالوليد بن المغيرة، وهذه الآيات عامة في النهي عن طاعة كلِّ من اتصف بهذا الصفات القبيحة.

﴿هَمَّازٍ﴾ أي: كثيرِ الغِيبة للناس، يعيبهم ويطعن فيهم.

﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ أي: كثيرِ المشي بين الناس بالنميمة ليفسد ما بينهم بنقل أحاديث بعضهم لبعض.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: شديدِ المنع للمال عن المحتاجين، بخيلٍ بما يلزمه من الحقوق.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ أي: معتدٍ على الناس في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، متجاوزٍ للحد المشروع إلى الباطل ظلما وعدوانا، كثيرِ الذنوب في حق الله سبحانه.

﴿عُتُلٍّۭ﴾ أي: غليظِ البدن، قاسي القلب، شرسِ الأخلاق.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ أي: هو مع هذه الصفات القبيحة معروفٌ بالشر، ملصقٌ في قومه ليس منهم. قال بعض المفسرين: الزَّنيم الذي يُعرف بالشر كما تُعرف الشاة التي في عنقها زنمةٌ متدليةٌ زائدةٌ من جِلدها، قال القرطبي: "معظم المفسرين أنه الوليد بن المغيرة".

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لا تطع - أيها الرسول - من كان متصفا بهذه الصفات السيئة من أجل أنه صاحبُ مال كثير، وأبناءٌ يتقوى بهم، كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ [المدثر: ١١ - ١٦].

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: إذا تُقرأ على هذا الكافر آيات القرآن قال مكذبا بكونها من عند الله: هذه أكاذيب الأولين وخرافاتهم التي سطَّروها في كتبهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾ [المدثر: ٢٣ - ٢٥].

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ أي: سنبين صفة هذا الكافرِ بوضوحٍ حتى يُعرفَ من بين الناس في الدنيا والآخرة، كما لا تخفى العلامةُ الظاهرةُ التي على أنف صاحبها. قال بعض المفسرين: أي: سنسود وجهه، ويجوز أن تكون له علامة يوم القيامة يُعرف بها من بين أهل النار؛ لأنه كان شديد العدواة للنبي صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ [طه: ١٠٢]، وقال سبحانه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمن: ٤١].

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: إنا اختبرنا كفار قريش بنعم الدنيا ليشكروا الله، وأتممنا عليهم النِّعَم ببعثة نبينا محمد إليهم، فعاقبناهم بالجوع والقحط والخوف حين لم يؤمنوا به كما اختبرنا أصحاب البستانِ الذين حرمناهم ثمرته عقوبة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٢ - ١١٤].

روى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: (هي أرضٌ باليمن يقال لها: ضَرَوَان)، وهي أرض محروقة معروفة إلى الآن في الجهة الشمالية من مدينة صنعاء.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: حين حلف أصحاب البستان ليَقطَعُنَّ ثمار الجنة وقت الصباح الباكر قبل مجيء المساكين.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: ولم يقل أصحاب البستان: إن شاء الله، حين حلفوا أنهم سيصرمون ثمارهم في الغد مصبحين. قال ابن عاشور: "قول: (إن شاء الله) هو على تقدير: إلا أن يشاء الله؛ ولذلك يسمى استثناء وإن كان بغير حرف استثناء".

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: فنزل على جميع تلك الجنة ليلا عذابٌ من أمر ربك

فاحترقت، وأصحابها نائمون وقت هلاكها، غافلون عما أصابها.

ولم يبين الله نوع العذاب الذي أصاب تلك الجنة، فقد يكون بركانا خرج من الأرض أو نارا نزلت من السماء أو غير ذلك مما يعلمه الله.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: فصارت تلك الجنة محترقة سوداء مثل الليل المظلم.

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: فنادى أصحاب الجنة بعضهم بعضا في أول وقت الصباح؛ ليذهبوا لجذاذ ثمرها مبكرين.

﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اخرجوا في الصباح الباكر مقبلين على جنتكم إن كنتم اليوم عازمين على قطع ثمارها قبل حضور المساكين.

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ أي: فانطلق أصحاب الجنة إلى جنتهم وهم يتكلمون فيما بينهم سرا لئلا يعلم بهم المساكين.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: قال أصحاب الجنة بعضهم لبعض سرا في حال ذهابهم إليها: لا يدخلن جميع اليوم جنتكم أحد من المساكين، فلا تمكنوهم من الدخول عليكم حتى تجمعوا كل ثمرها، ولا تتركوا فيها شيئا للمساكين بعد جذاذها.

﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: وانطلق أصحاب البستان في أول الصباح في حال كونهم قاصدين بإرادةٍ جازمةٍ منعَ المساكينِ من الثمار، غاضبين عليهم، مسرعين في مشيهم، قادرين في أنفسهم على ما عزموا عليه من الحصاد وحرمانِ المساكين.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾ أي: فلما رأى أصحاب الجنة جنتهم سوداء محترقة أنكروا أن تكون جنتهم، قال بعضهم لبعض في حيرة: إنا لتائهون عن طريق جنتنا!

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧﴾ أي: تيقن أصحاب الجنة المحروقة أنهم لم يخطئوا الطريق إليها كما ظنوا، قالوا نادمين: بل حرمنا الله الانتفاع بجنتنا عقوبة لنا، فلا نصيب لنا في شيء من ثمارها التي عزمنا على حرمان المساكين منها.

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨﴾ أي: قال أفضل أصحاب الجنة لإخوانه: ألم أقل لكم ناصحا: هلا نزَّهتم الله بالتسبيح، ونزَّهتم الله أن يكون في ملكه ما لا يريد، فشكرتم الله على ما أعطاكم من النِّعم بطاعته، وإعطاء المساكين حقهم، وقلتم حين عزمتم على الصرام مصبحين: إن شاء الله؟ قال الواحدي: "أنكر عليهم ترك الاستثناء في قوله: ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨﴾، وسمى الاستثناء تسبيحا؛ لأنه تعظيم لله، وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل شيئا إلا بمشيئة الله تعالى".

﴿قَالُواْ سُبۡحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٩﴾ أي: قال أصحاب الجنة معترفين بخطئهم: نُنَزِّه ربنا عن كل نقص وعيب، فهو العظيم الفعَّال ما يشاء، ولم يظلمنا بعقوبته لنا، إنا كنا ظالمين لأنفسنا في تركنا قول: إن شاء الله في قَسَمِنا، وفي عَزْمِنا على ظلم المساكين بحرمانهم من ثمار جنتنا. وفي هذا عبرة لمن يريد أن يُسقط حق المساكين من الزكاة والصدقة، أو يتحيل في حرمانهم منها.

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠﴾ أي: فأقبل أصحاب الجنة يلوم بعضهم بعضا على تركهم الاستثناءَ في قَسَمهم، وعَزْمِهم على منعِ المساكينِ حقَّهم من ثمار جنتهم.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١﴾ أي: قال أصحاب الجنة المحروقةِ متحسرين: يا هلاكنا إنا كنا متجاوزين أمر الله بترك الاستثناءِ في القَسَم، والعزمِ على منع المساكينِ حقهم.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ٣٢﴾ أي: قال أصحاب الجنة: نرجو من ربنا بعد أن تُبنا إليه أن يعوضنا في الدنيا وفي الآخرة خيرا من جنتنا التي هلكت، إنا إلى ربنا لا إلى غيره راغبون بسؤاله أن يبدلنا خيرا من جنتنا، طالبون الخير منه وحده.

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ أي: كعقوبتنا أصحابَ الجنة بهلاك جنتهم كذلك نعاقب في الدنيا من يخالف أمرنا، ويمنع المساكين حقوقهم، فنُزيل عنه ما أعطيناه من النِّعم. ولَعقوبةُ الله للكفار والعصاة في الآخرة أكبر من عقوبة الدنيا. لو كان مشركو قريش يعلمون أن عقوبة الله في الآخرة للمشركين أكبر من عقوبته لهم في الدنيا؛ لتابوا إلى الله من كل ما يوصلهم إلى العذاب، ولكنهم مغرورون لا يعلمون شدة عقوبة الله.

﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤﴾ أي: إن للذين اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه عند ربهم في الآخرة بساتينَ النعيمِ الخالصةَ من المنغصات، الدائمةَ التي لا تبيد.

﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ ﴾ أي: أفنسوي في جزاء الآخرة بين المسلمين الذين يعبدوني، ويطيعوني في أمري ونهيي، وبين المجرمين الذين عبدوا غيري، وخالفوا أمري ونهيي؟! كلا، بل يثيب الله المسلمين، ويعذب المجرمين، كما يقتضي ذلك عدلُ الله وحكمتُه. قال المفسرون: كان كفار قريش إذا سمعوا ما وعد الله المؤمنين في الجنة قالوا: إنْ صحَّ أنَّا نُبعث بعد موتنا فسيُدخلنا الله الجنة مثل المؤمنين، فكما أنعم الله علينا في الدنيا أفضل من المسلمين، فسيعطينا في الآخرة أفضل منهم أو مثلهم.

﴿ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦﴾ أي: ما لكم - أيها المشركون - تسوون بين المسلمين المطيعين لله والمجرمين العصاة، وتظنون أن الله يسوي بينهم في ثواب الآخرة، ولا تعرفون بطلان حكمكم؟!

﴿ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ٣٨﴾ أي: بل ألكم كتابٌ منزَّلٌ من عند الله تقرءون فيه ما تزعمون من التسوية بين المسلمين والمجرمين في ثواب الآخرة، تدرسون فيه أن لكم ما تختارونه وتتمنونه من الثواب مع كفركم بالله؟!

﴿ أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ٣٩﴾ أي: بل ألكم - أيها المشركون - عهود مؤكدة

أقسمناها لكم، مؤبدة إلى يوم القيامة، بأنه سيحصل لكم حكمكم الذي تزعمونه من الثواب في الجنة؟!

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ أي: سل - يا رسولنا - مشركي قومك أيهم ضامنٌ بأن لهم الجنة في الآخرة كالمسلمين؟

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي: أم أللمشركين أصنام يزعمون أنها شركاء لله في استحقاق العبادة فليُحضِروها في الآخرة لتجعل لهم نصيبا من الجنة، إن كانوا صادقين في زعمهم أن أصنامهم شركاء لله، وأن لهم خيرا في الآخرة كالمسلمين؟

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: اذكر يوم القيامة حين تظهر الشدائد، وتبدو الحقائق، كما قال تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ [القيامة: ٢٩].

وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: (هو الأمر الشديد المفظع من الهول يوم القيامة).

وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: (شدة الأمر)، قال ابن عباس: (هي أشد ساعةٍ تكون في يوم القيامة).

قال ابن قتيبة: (من الاستعارة في كتاب الله قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: عن شدة من الأمر، وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه شمَّر عن ساقه، فاستُعِيرت الساق في موضع الشدة)[1].

(١) أكثر المفسرين من السلف الصالح على أن هذه الآية ليست من آيات الصفات، ورجح بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم والشوكاني رحمهم الله أن هذه الآية من آيات الصفات، ولا يستلزم ذلك تشبيها، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، وذهب ابن عثيمين رحمه الله إلى أن الآية يحتمل أن تكون من آيات الصفات، ويحتمل أن يُراد

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٤٢﴾ أي: وتدعو الملائكة الكفار والمنافقين يوم القيامة إلى السجود لله، فلا يقدرون على السجود.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الرؤية والشفاعة الطويل، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((... فيُكشف عن ساقٍ، فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرَّ على قفاه!)). رواه البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: في حال كون الكافرين والمنافقين يوم القيامة ذليلةً أبصارُهم بسبب خوفهم الشديدِ من عذاب الله، تغشاهم ذلةٌ ظاهرةٌ عليهم.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ أي: وقد كان الكافرون والمنافقون يدعوهم المسلمون إلى السجود لله، فأبوا أن يُصلُّوا لله ويسجدوا له وهم أصحاء، قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨﴾ [المرسلات: ٤٨]. قال الرازي: "يعني: كانوا يُدعون إلى الصلوات بالأذان والإقامة، وكانوا سالمين قادرين على الصلاة، وفي هذا وعيدٌ لمن قعد عن الجماعة، ولم يُجِب المؤذن إلى إقامة الصلاة في الجماعة".

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ المراد بالحديث هنا القرآن، سُمِّي حديثا لما فيه من الإخبار عن الله تعالى وأسمائه وصفاته، وما فيه من أخبار الأمم الماضية، وأخبار الأمور الآتية، فهو أحسن الحديث. أي: فدعني - أيها الرسول - ومن يُكذِّبون بالقرآن، وفوِّض أمر عقوبتهم إليَّ، ولا تستعجل عقوبتهم، ولا ينشغل قلبك بهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤﴾ [مريم: ٨٤].

بها الشدة، ولا إنكار على من قال بأحد القولين. يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٢٦٢) و (١/ ٣٠٩).

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: سنُقَرِّب الذين كذَّبوا بالقرآن إلى هلاكهم بالتدريج من جهاتٍ لا يعلمون أنها استدراج لهم، فنزيدهم من متاع الدنيا، فيلتهون بالدنيا ومتاعها، ولا يفكرون فيما سيلقون في نهايتهم، إلى أن نهلكهم بغتة وهم في غفلتهم، كما قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٤ - ٥٦].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: وأُمهِلُ الذين كذَّبوا بالقرآن، ولا أعاجلهم بالهلاك؛ ليتمادوا في الكفر والمعاصي، فيتضاعفُ عذابُهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته))، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي: إن مكري بأهل الكفر والنفاق والظلم والمعاصي قويٌّ شديد، فلا نجاة لهم من عذابي الشديد.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: بل أتسأل - يا رسولنا - قومك مالا مقابلَ دعوتك لهم إلى الله، فهم بسبب ما حمَّلتهم من الغرم في أموالهم لا يستجيبون لك؟! كلا، أنت لم تسألهم أجرا، فلماذا يُعرضون عنك؟! كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يوسف: ١٠٤].

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: بل أعند المشركين علمُ اللوح المحفوظ الذي فيه ما غاب عن الناس، فهم يكتبون علم الغيب الماضي وعلم الغيب الآتي ويخبرون به الناس؟! ليس الأمر كذلك، فلا يعلم الغيب إلا الله.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: فاصبر - أيها الرسول - لما حكم الله به عليك من طاعته، وتبليغ رسالته، وتحمَّلْ أذى المشركين، وما يُقدِّره الله عليك من المصائب.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ أي: ولا تكن - يا نبينا محمد - مستعجلا عذاب قومك، تاركا الصبر عليهم مثلَ النبيِّ يونسَ الذي ضجر من قومه، ولم يصبر عليهم، فعاقبه الله بحبسه في بطن الحوت.

﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨﴾ أي: حين نادى يونس ربه قائلا: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وهو مغموم في بطن الحوت، مملوء صدره غما وحزنا وندما، كما قال سبحانه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾[الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾ أي: لولا أن أدركت يونسَ رحمةٌ عظيمة من ربه، فاستجاب له، ونجاه من بطن الحوت، وأنبت عليه شجرة من يقطين، لطُرح بالأرض الخالية من الناس والأشجار والبناء وهو ملوم على ذنبه، لكنه طُرِح بساحل البحر وهو غير مذموم بعد توبة الله عليه، كما قال تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦].

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾ أي: فاصطفى الله يونس عليه الصلاة والسلام، واختاره للنبوة، وجعله من رسل الله المفضَّلين، الذين صلحت أحوالهم الظاهرة والباطنة.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١﴾ أي: وإن يكاد الذين كفروا ليُسقِطونك - يا رسولنا - من شدة إحداد نظرهم إليك، غضبا وحنقا عليك، لَمَّا سمعوا القرآن يُتلى عليهم، ويقولون: إن محمدا لمجنون، يهذي في جنونه بهذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا

﴿تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

وذهب بعض المفسرين كالسمين الحلبي وابن كثير والسعدي إلى أن المعنى: وإن يكاد الذين كفروا ليُعينونك بأبصارهم، لبُغضهم إياك، وحسدهم لك، لولا وقاية الله لك من أعينهم الخبيثةِ لأصابوك بها. وهذا المعنى صحيح تحتمله الآية، وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ في إثبات تأثير العين، والاستعاذةِ منها، ومن ذلك ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((العين حق)). قال ابن كثير: "في هذه الآية دليل على أن العين إصابتُها وتأثيرُها حق، بأمر الله عز وجل".

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: وما هذا القرآن إلا عِظة من الله لجميع الجن والإنس، يتذكرون به ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

تدبر سورة الحاقة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١﴾ أي: القيامة الثابتة الوقوع، التي تظهر فيها الحقائق، ويتحقق فيها وعد الله ووعيده.

﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾ يعني: أيُّ شيء صفة القيامة العظيمة الشأن؟!

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾ الخطاب لغير معين، والمعنى: الحاقة أمر عظيم، وما عرَّفك – أيها الإنسان – بتفاصيل صفة القيامة وأهوالها؟! كما قال تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٣﴾ [القارعة: ١ – ٣].

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾ أي: كذَّبت أمةُ ثمود قوم صالح وأمةُ عاد قوم هود بالقيامة التي تقرع قلوب الناس بأهوالها، فأنكروا البعث بعد الموت.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ أي: فأما ثمود فأهلكهم الله بالصاعقة الفظيعة التي جاوز صوتها المرتفع مقدار كل صوت، فماتوا من شدتها، كما قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾ أي: وأما عاد فأهلكهم الله بريح باردة شديدة الهبوب، لها صوت يُصرصر، جاوزت شدتها كل عاصفة، فعتت على قوم عاد حين جاوزوا الحد فدمرتهم تدميرا، كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ أي: سلَّط الله الرياح العاصفة على عاد سبع ليال وثمانية أيام متتابعة، بلا فتور ولا انقطاع، تحسمهم وتفنيهم، فلم يبق منهم أحد.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ أي: فترى - لو كنت هنالك حاضرا - قوم عاد في تلك الليالي والأيام موتى كأنهم بعد هلاكهم أصول نخل بالية، قد سقطت على الأرض، وخلت أجوافها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾ أي: فهل ترى من كفار عاد نفسا باقية بعد أن أبادهم الله؟! كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾ [مريم: ٩٨].

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ أي: وجاء ملك مصر فرعون، ومن كان قبله من كفار الأمم الماضية، وقوم لوط أصحاب القرى التي جعل الله عاليها سافلها، كل هؤلاء جاءوا بالفعلة الخاطئة، من الشرك والفواحش، فأهلكهم الله بذنوبهم.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ أي: فعصى كل من فرعون، وكفار الأمم الماضية، وقوم لوط، رسل الله إليهم، فأهلكهم الله بعذاب الاستئصال، هلاكا زائدا عن الحد، شديدا عظيما، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١﴾ أي: إنا لما كثر الماء وارتفع ارتفاعا زائدا عن الحد حين أغرقنا قوم نوح، حملنا آباءكم الذين هم أصلكم في سفينة نوح التي كانت تجري فوق الماء.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: لنجعل إهلاكنا الكافرين من قوم نوح، وإنجائنا المسلمين في السفينة موعظة لكم، فتتذكرون أن الله أغرق جميع أهل الأرض إلا المؤمنين، وتستدلون بذلك على كمال قدرة الله وحكمته، وقهره للكافرين، ورحمته بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ أي: وتحفظ قصة قوم نوح وتنتفع بسماعها أذن حافظة لخبر الله، وهذا عام في كل من فهم ووعى، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٨].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: فإذا نفخ المَلَكُ في القرن النفخة الأولى يوم القيامة، أكد أنها نفخة واحدة لأن أمر الله لا يُخالف ولا يُمانع، ولا يحتاج إلى تكرار وتأكيد.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ أي: ورُفعت الأرض والجبال عن أماكنها، فَضُرِب بعضها ببعض، فتُزلزل الأرض، وتُبدَّل، وتُمد مدا، وتتفتت الجبال وتُنسف نسفا.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَٰقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ أي: فيوم النفخ في الصور، ودك الأرض والجبال، قامت القيامة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ أي: وانفطرت السماء فهي يوم القيامة ضعيفة البناء لتشققها.

﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ أي: والملائكة على أطراف السماء وجوانبها حين تنشق يوم القيامة، خاضعين لله، مطيعين أمره، محيطين بخلقه.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: ويحمل عرش ربك فوق رءوسهم يوم القيامة ثمانية من الملائكة في غاية القوة، وهذا من أمور الغيب التي لا نعلم تفصيلها.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ أي: يوم القيامة تُعرَضون - أيها الناس - على ربكم ليحاسبكم، لا تخفى على الله منكم خافية من أنفسكم، ولا من أعمالكم الظاهرة والباطنة، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ أي: فأما من أُعطي كتاب أعماله بيده اليمنى، وذلك دليل نجاته، فيقول للصالحين فرحا مستبشرا: تعالوا خذوا كتابي واقرءوا ما فيه من الحسنات،

فقد غفر الله له ذنوبه القليلة؛ لأن حسناته أكثر من سيئاته، فلم يبق في كتابه إلا الحسنات، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩].

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ أي: يقول المؤمن حين يُعطى كتابه بيمينه: إني أيقنت في الدنيا أني سأُبعث وألقى حسابي يوم القيامة، فعملت الأعمال الصالحة استعدادا للآخرة.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾ أي: فالمؤمن الذي أُعطي كتابه بيمينه في عيشة في الجنة حالُها مرضية، قد رضيها المؤمن لجمعها ما لا يخطر بباله من النعيم، فمن يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، لا يمرض، ولا يحزن، ولا يخاف، ولا يموت، قد سلم من كل نقص ومنغص، فهو في عيشة كاملة النعيم.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢﴾ أي: في بستانٍ عالِ المكان والقدر، مرتفع القصور والأشجار.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣﴾ أي: ثمار أشجار الجنة قريبة ممن يريد أخذها على أي حال، لا يمنعه من قطفها بُعد ولا شوك.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ أي: يقال لأهل الجنة: كلوا من أطعمة الجنة المتنوعة، واشربوا من أنواع شرابها اللذيذة، متهنئين في أكلكم وشربكم، لا تخافون أذى ولا تنغيص، بسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة في أيام الدنيا الماضية، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩﴾ [الطور: ١٩].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾ أي: وأما من أُعطِي كتاب أعماله بيده الشمال، وذلك دليل هلاكه، فيقول متمنيا متحسرا: يا ليتني لم أُعط كتاب أعمالي السيئة.

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦﴾ أي: ولم أعلم أي شيء حسابي.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾ أي: يا ليت موتتي في الدنيا كانت نهاية حياتي، واستمر موتي ولم أُبعث

للحساب والجزاء.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾ أي: لم يدفع عني مالي الذي جمعته في الدنيا شيئا من عذاب الآخرة.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ أي: ذهبت عني حجتي، فلا حجة لي يوم القيامة، وزال عني مُلكي وجاهي وقوتي.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠﴾ أي: يقول الله لخزنة جهنم: امسكوا الكافر، وضعوا في عنقه الأغلال.

﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١﴾ أي: ثم اقذفوه في جهنم ليحترق فيها جميع جسده.

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ٣٢﴾ أي: ثم في سلسلة من حديد طولها سبعون ذراعا فعذِّبوا الكافر بإدخالها في جسده وبلفها عليه؛ ليتعذب بشدة حرارتها، وبتضييقها عليه، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣﴾ أي: إن هذا الكافر كان في الدنيا لا يُصدِّق بتوحيد الله وعظمته، ولا يقوم بحق الله بعبادته، فاستحق العذاب الشديد.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾ أي: وكان لا يحث غيره على إطعام المحتاجين، ولا يُطعمهم من ماله.

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥﴾ أي: فليس للكافر يوم القيامة إنسانٌ قريبٌ ينفعه بدفع عذاب الله عنه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ٣٦﴾ أي: وليس للكافر يوم القيامة طعام إلا من غسلين، وهو الدم والقيح الذي يخرج من أجسام أهل النار.

﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ ٣٧﴾ أي: لا يأكل الغسلين إلا المذنبون الذي تعمدوا الآثام.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾ أي: فأُقسم بجميع ما ترونه - أيها الناس - من الأشياء كلها، كبيرها وصغيرها، وأُقسم بجميع ما لا ترونه من الخالق، وجميع المخلوقات التي لا ترونها، وكل ما غاب عنكم من أمور الدنيا والآخرة، وهذا أعم قسم وقع في القرآن الكريم، فإنه يعم كل ما يُرى وما لا يُرى.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾ أي: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذي يتلوه على الناس.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١﴾ أي: وما هذا القرآن بكلام شاعر كما يزعم الكفار، قليلا ما تصدقون أيها الكافرون، فلا يؤمن منكم إلا القليل، ولا تصدقون إلا بأشياء قليلة من الحق الذي جاء به الرسول، ولا تصدقون بكل ما جاء من عند الله.

﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾ أي: وما هذا القرآن بكلام كاهنٍ كاذبٍ يدَّعي علم الغيب كما يزعم الكفار، قليلا ما تتعظون بهذا القرآن في بعض الأوقات.

﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣﴾ أي: هذا القرآن نزل من عند الله رب العالمين على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام، فهو كلام الله حقا، وليس قول شاعر، ولا قول كاهن كما يزعم المشركون.

﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥﴾ أي: ولو تقوَّل محمدٌ علينا بعض الأقاويل الكاذبة، ونسب إلى الله شيئا لم يقله الله؛ لأخذنا بيده اليمنى إهانة له، وعجلنا عقوبته بقتله.

وفي الآية معنى آخر صحيح، قال الفراء وابن جرير والزجاج والواحدي: المعنى: لأخذناه بقوتنا وقدرتنا.

﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾ قال المفسرون: {الْوَتِينَ} عرق يتصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه.

أي: ثم لقطعنا عِرقَ قلبه، فأمتناه تعجيلا لعقوبته إن نسب إلينا شيئا لم نقله. قال ابن قتيبة: "ولم يُرد أنا نقطعه بعينه، ولكن أراد: ولو كذب علينا لأمتناه أو قتلناه، فكان كمن قُطِع وتينه".

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: فما منكم - أيها الناس- من أحد مانعين لنا عن عقوبته إن كذب علينا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: وإن القرآن لعظة للمتقين الذين يتقون عذاب الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، فهم يتذكرون به ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: وإنا لنعلم أن منكم - أيها الناس - مكذبين بالقرآن مع وضوح الحق فيه، وسنعذبهم على تكذيبهم بالحق.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: وإن القرآن لندامة شديدة على الكافرين يوم القيامة حين يُعذَّبون على تكذيبهم به، ويخسرون ثواب الإيمان به واتباعه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ أي: وإن القرآن لهو الخبر اليقين الذي لا شك في كونه كلام الله، ولا شك في صدق أخباره، وعدل أحكامه.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: فنزِّه - أيها الرسول - ربَّك عن كل ما لا يليق بكماله، فإنه المتصف بصفات الكمال والعظمة، فاعبده وعظِّمه، واذكر اسمه العظيم، قائلا: سبحان ربي العظيم.

وأمْرُ الله لرسوله أمْرٌ لأمته، فنحن مأمورون أن نسبح الله لا سيما في الركوع وفي السجود، وقد علمنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نقول في الركوع: سبحان ربي العظيم، وأن نقول في السجود: سبحان ربي الأعلى، وكان عليه الصلاة والسلام يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)).

تدبر سورة المعارج

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١﴾ أي: دعا داع من الكفار بعذاب الله مستعجلا له في الدنيا، وهو واقع بالكفار لا محالة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٢٠٤﴾ [الشعراء: ٢٠٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (هو النَّضْر بن الحارث).

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢﴾ أي: عذاب النار واقع على الكافرين، ليس للعذاب دافع يدفعه عن الكافرين حين يأتيهم يوم القيامة.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣﴾ أي: لا أحد يدفع العذابَ عن الكافرين الواقعَ عليهم من الله صاحبِ الدرجات العالية، والعظمةِ الكاملة، كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: ١٥].

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ أي: تصعد الملائكة وجبريل عليهم السلام في معارج السماء إلى الله سبحانه.

﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ أي: تصعد الملائكة وجبريل من الأرض إلى عرش الرحمن فوق السماوات السبع في يوم واحد، يقطعون فيه مسافة عظيمة قدرها خمسون ألف سنة لو أراد غيرهم أن يقطعها!

وفي الآية معنى آخر صحيح، وهو أن المراد به يوم القيامة، روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (هذا يوم القيامة، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة).

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أُعيدت له، في يوم كان مقداره

خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيُرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار)).

وقد جاء في القرآن آيتان فيهما ذكر ألف سنة، قال الله سبحانه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥]. قال كثير من المفسرين: أي: إن الله يدبر أمر خلقه بما يشاء من أمور الدنيا فينزل تقديره من السماء إلى الأرض ثم يصعد إليه الأمر مع الملائكة من الأرض إلى السماء بسرعة في يوم كان مقداره ألف سنة مما تحسبون من أيامكم، خمسمائة سنة في النزول، وخمسمائة سنة في الصعود. وقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٤٧﴾ [الحج: ٤٧]، قال كثير من المفسرين: المعنى: وإن يوما عند ربك كمقدار ألف سنة مما تعدون لقدرة الله على الانتقام من الكفرة، فهو يمهلهم ولا يعاجلهم بالعقوبة، فالبطيء عند الناس قريب عند الله، وقال الأخفش والسمرقندي والواحدي والسمعاني والرازي: المعنى: وإن يوما من أيام عذابهم في الثقل والشدة كألف سنة مما يعدون. وقال يحيى بن سلَّام وابن الجوزي وابن جُزَي: المعنى: وإن يوما عند ربك من أيام الآخرة كألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا. والله أعلم بكتابه، وقد روى عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن هذه الآيات فقال: (أياما سماها الله تعالى لا أدري ما هي، أكره أن أقول فيها ما لا أعلم).

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلٗا ۝٥﴾ أي: فاصبر - أيها النبي - على تكذيب المشركين بك، وأذاهم لك، صبرا جميلا لا تشكِّي فيه، ولا تستعجل عذابهم والنصر عليهم، وتحمَّل مشاق الدعوة إلى الله بلا ضجر، ولا ملل. قال ابن جرير: "لم يزل النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعثه الله إلى أن مات في أذى من المشركين، وهو في كل ذلك صابر على ما يلقى منهم من قبل أن يأذن الله له بقتالهم، وبعد ذلك".

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦﴾ أي: إن الكافرين يرون عذاب الله بعيد الوقوع لعدم إيمانهم بالبعث بعد

الموت؛ ولذلك يستعجلون به استهزاء.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾ أي: ونحن نرى العذاب النازل بالكفار قريب الوقوع؛ لأن ما أخبر الله بوقوعه فهو آتٍ لا محالة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ أي: يوم القيامة تكون السماء منحلة الأجزاء، متغيرة اللون، كالزيت الغليظ المذاب.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ أي: وتكون الجبال يوم القيامة لينة متفرقة كالصوف المنفوش.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠﴾ أي: ولا يسأل يوم القيامة قريب قريبه عن حاله؛ لشغل كل إنسان بنفسه.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١﴾ أي: يرى الأقارب بعضهم بعضا، ويعرف بعضهم بعضا، لكن لا يسأل أحد قريبه عن حاله؛ لشدة الأهوال، يتمنى الكافر يوم القيامة أن يُقبَل منه أن ينقذ نفسه من عذاب جهنم بتعذيب أبنائه بدلا عنه.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢﴾ أي: ويتمنى المجرم أن يُنقذ نفسه من عذاب جهنم بزوجته وإخوانه، فيسلم هو من العذاب دونهم.

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣﴾ أي: ويتمنى المجرم أن يُنقذ نفسه من عذاب جهنم بعشيرته وقبيلته التي كانت في الدنيا تضمه وتنصره.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾ أي: ويتمنى المجرم لو يفتدي يوم القيامة بجميع من في الأرض من أصدقائه وغيرهم وجميع نفائس الأموال ثم يخلصه ذلك الافتداء من عذاب الله.

﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥﴾ أي: كلا لن يُنجي المجرمَ من عذاب الله الافتداءُ، إن نار جهنم تتلهب، شديدة الحرارة.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي: كثيرة نزع جلود رءوس الكافرين، ونزع أطراف أبدانهم، ثم يبدلهم الله غيرها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦].

﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي: تدعو جهنم إليها ليدخلها من أدبر في الدنيا عن عبادة الله، وأعرض عن الإيمان. قال بعض المفسرين: "يجوز أن يخلق الله في جهنم كلاما كما يخلقه في جلودهم وأيديهم وأرجلهم، ويجوز أن يكون دعاء زبانية جهنم".

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ أي: وجمع الأموال فجعلها في خزنة بعضها فوق بعض، ومنع الزكاة والصدقات، ولم ينفق ماله في طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾﴾ [الهمزة: ٢ - ٤].

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ أي: طُبع الناس ورُكِّبوا على شدة الحرص والضجر، لا يشكرون الله عند النعم، ولا يصبرون عند المصائب.

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: إذا مس الإنسانَ البلاءُ بفقر أو ذهاب مال أو مرض أو موت حبيب فهو جزوع لا يصبر.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ أي: وإذا مس الإنسانَ النعمةُ بالغنى وكثرة المال فهو شديد البخل بماله، لا ينفقه في طاعة الله، ولا يعطي منه المساكين.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: إلا المصلين المتصفين بالصفات الطيبة الآتي ذكرها فليسوا كذلك، بل يصبرون عند المصائب، ويشكرون عند النعم.

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: الذين يؤدون صلاتهم المفروضة في أوقاتها، لا يتركون شيئا

منها، ويسكنون في صلاتهم خاشعين، لا يلتفتون فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾ أي: والذين في أموالهم نصيب مؤقت للمحتاجين، من الزكاة والصدقات. قال الجصاص: "في المال حق سوى الزكاة باتفاق المسلمين، منه ما يلزم من النفقة على والديه إذا كانا فقيرين، وعلى ذوي أرحامه، وما يلزم من طعام المضطر، وحمل المنقطع به، وما جرى مجرى ذلك من الحقوق اللازمة عندما يعرض من هذه الأحوال".

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ أي: في أموالهم حق معلوم للسائل الذي يسأل الناس الصدقات، والمتعفف الذي لا يسأل الناس مع شدة حاجته.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦﴾ أي: والذين يُقرِّون بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء يوم القيامة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧﴾ أي: والذين هم من عذاب ربهم في الآخرة خائفون، فهم لذلك يعملون الأعمال الصالحة، ويتركون الأعمال السيئة.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨﴾ أي: إن عذاب الله في الآخرة لا يأمنه أحد من المؤمنين ولا غيرهم، فيجب الخوف من عذاب الله، وترك مخالفة أمر الله ونهيه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩﴾ أي: والذين هم صائنون لفروجهم من الزنا وعمل قوم لوط، ولا يكشفونها إلا على أزواجهم وإمائهم.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠﴾ أي: يحفظون فروجهم إلا من أزواجهم أو إمائهم اللاتي يملكونهن، فلا يلامون على وطئهن على الوجه المشروع.

وقد نقل السمعاني في تفسيره عن سفيان بن عيينة أنه قال: "من لام رجلا إذا تزوج أربع نساء فقد عصى الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾، ومن تزوج بأربع نسوة فلا خلل في زهده".

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١﴾ أي: فمن طلب وطء غير زوجته وجاريته فهم المعتدون المجاوزون ما أحله الله إلى ما حرمه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾ أي: والذين هم لما ائتمنهم الله والناس عليه ولعهودهم مع الله وعباده؛ مراعون، قائمون بحفظها، لا يخونون الأمانات، ولا ينقضون العهود.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾ أي: والذين هم قائمون على أداء ما استُشْهِدوا عليه ولو على القريب، بلا زيادةٍ ولا نقصان، ولا تغيير ولا كتمان.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤﴾ أي: والذين هم مواظبون على أداء صلاتهم في أوقاتها، بأركانها وشروطها وواجباتها.

بدأ الله صفات الصالحين بالصلاة، وختمها بالصلاة، وهذا يدل على عِظَم قدر الصلاة، واعلم أن أفضل أوقات حياتك حين تكون في صلاتك، فاطمئن فيها، واستكثر منها، واسجد واقترب من ربك بها، فهي خير الأعمال، ومن حافظ على صلواته وأخلص لله فيها نهته عن الفحشاء والمنكر، وكان من أهل الجنة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات في بساتين قد كرَّمهم الله بأنواع الكرامات والتعظيم.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦﴾ أي: فما شأن كفار قريش الذين عندك - أيها الرسول - مسرعين نفورا منك؟ كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ٤٩ كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ ٥١﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١]. قال الزجاج: "المهطِع: الـمُقبِل ببصره على الشيء لا يزايله؛ لأنهم كانوا ينظرون إلى النبي عليه السلام نظر عداوة".

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾ أي: في حال كونهم معرضين عنك عن يمينك وعن شمالك متفرقين! كما قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وروى ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ قال: (أي: فِرَقا حول نبي الله صلى الله عليه وسلم، لا يرغبون في كتاب الله، ولا في نبيه).

﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨﴾ أي: أيطمع كل واحد من المشركين أن يُدخله الله بساتين نعيم يوم القيامة، وهم يشركون بالله، ويعرضون عن رسوله؟!

﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾ أي: ليس الأمر كما يطمع المشركون في دخول الجنة مع كفرهم بالله، إنا خلقناهم من نطفة قذرة كما يعلمون ذلك، فليس لهم فضل على سائر الناس، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ أي: فأُقسم بخالق ومدبر مشارق الشمس ومغاربها إنا لقادرون على بعث الناس بعد موتهم. قال ابن عطية: "المشارق والمغارب هي مطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب، وحيث تغرب". وقال ابن القيم: "هي مشارق النجوم ومغاربها أو مشارق الشمس ومغاربها أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب، فكل ذلك آية ودلالة على قدرة الله على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين، وينشئهم فيما لا يعلمون، فيأتي بهم في نشأة أخرى كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلَع، ويذهب بها في مغرِب".

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾ أي: إنا لقادرون على أن نهلك المشركين، ونأتي بقوم خير منهم يطيعون الله ويتَّقونه، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩﴾ [إبراهيم: ١٩].

وذهب بعض المفسرين كابن كثير إلى أن المعنى: نبعث الناس يوم القيامة بأبدان خير من أبدانهم التي كانت لهم في الدنيا، فقدرتنا لا يعجزها شيء. وقال ابن عاشور: "يحتمل معنيين: أولهما وهو المناسب

للسياق أن يكون المعنى: على أن نُبدِّل ذواتهم خلقا خيرا من خلقهم الذي هم عليه اليوم ... والمعنى الثاني: أن نُبدِّل هؤلاء بأمة خير منهم".

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦١﴾﴾ أي: وما نحن بعاجزين عن الإتيان بخير منهم، ولا يمتنع علينا أي شيء نريده، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٠ - ٦٢].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: فاترك - أيها الرسول - المشركين يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في دنياهم بالشهوات إلى أن يلاقوا يوم القيامة الذي يعدهم الله فيه بدخول النار. قال ابن القيم: "هذا تهديد شديد يتضمن ترك الذين قامت عليهم الحجة في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد العلم النافع، فهم لا يتكلمون بالحق، واللعب ضد العمل الصالح، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول، لا بد له من هذين الأمرين: لا يتكلم بالحق، ولا يعمل بالصواب".

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ أي: يوم القيامة يخرج المشركون من القبور مسرعين إلى موقف الحساب.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: كأن المشركين في إسراعهم يوم القيامة كما كانوا في الدنيا يسرعون إلى أصنام منصوبة، فلا يستطيعون الفرار من أرض المحشر.

﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: ذليلة أبصار المشركين من شدة خوفهم من عذاب يوم القيامة، تغشاهم ذلةٌ ظاهرةٌ.

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: اليوم الموصوف بهذه الشدائد هو يوم القيامة الذي كان الكفار يوعدون به في الدنيا على ألسنة الرسل، وكانوا يُكذِّبون به.

تدبر سورة نوح

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾ أي: إنا أرسلنا نوحا إلى قومه المشركين بأن حذِّرهم الشرك، وادعُهم إلى عبادة الله وحده، من قبل أن يأتيهم عذاب مؤلم يستأصلهم في الدنيا، ويستمر بهم في الآخرة.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ أي: قال نوح: يا قوم إني نذير لكم ظاهر النذارة، أخوفكم عذاب الله إن عبدتم غيره، وأبين لكم ما أرسلني الله به من أمره ونهيه.

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣﴾ أي: قال نوح لقومه: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا، واجتنبوا ما يوقعكم في عذابه، وأطيعوني فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي: إن عبدتم الله واتقيتموه وأطعتموني يعفو الله عن ذنوبكم، ويسترها عليكم فلا يعاقبكم عليها في الآخرة.

﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ أي: وإن عبدتم الله واتقيتموه وأطعتم رسوله يؤخركم الله إلى منتهى آجالكم، ولا يأتيكم عذابُ الاستئصال في الدنيا.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ أي: إن الأجل الذي كتبه الله على خلقه في اللوح المحفوظ من عذاب الاستئصال العام أو الموت لأفرادهم إذا حضر لا يؤخر عن وقته، لو كنتم تعلمون ذلك لتبتم إلى الله سبحانه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥﴾ أي: قال نوح مشتكيا إلى الله طغيان قومه: رب إني دعوت قومي إلى توحيدك، وحذَّرتهم من الشرك بك ومعصيتك، في أوقات الليل والنهار بلا فتور.

﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦﴾ أي: فلم يزدهم دعائي لهم إلى الحق إلا هربا منه، وإعراضا عنه!

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي: وإني كلما دعوتهم ليوحدوك ويطيعوك لتغفر لهم ذنوبهم جعلوا أصابعهم في آذانهم فسدوها لكيلا يسمعوا كلامي حين أدعوهم إلى الإيمان، وغطوا وجوههم بثيابهم لئلا يروني ولا أراهم من شدة بغضهم للحق!

﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ أي: واستمروا على كفرهم ولم يتوبوا، وتكبروا عن قبول الحق استكبارا عظيما.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨﴾ أي: ثم إني دعوت قومي إلى التوحيد علانية أمام الناس في المحافل، ظاهرا من غير خفاء.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ أي: ثم إني دعوت قومي إلى الحق بصوتٍ عالٍ مرتفعٍ ليسمعوا مني جميعا، ودعوت أفرادهم إلى الحق فيما بيني وبينهم سرا.

﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠﴾ أي: فقلت لقومي: اطلبوا من ربكم أن يغفر لكم ذنوبكم، وتوبوا إليه من عبادة غيره، وأخلصوا له العبادة، إن الله متصف بكثرة مغفرة ذنوب من استغفره وتاب إليه.

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١﴾ أي: إن تبتم إلى الله وأخلصتم له العبادة يرسل عليكم مطر السماء متتابعا.

﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ أي: وإن تبتم يعطيكم الله أموالا كثيرة، وأبناء كثيرين، وكثرة الأموال والرجال من أسباب قوة الأمم، إذا سُخِّرت الأموالُ والأيدي العاملة فيما يصلح الأمة ويُعزها ويحميها.

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ أي: وإن تبتم يجعل الله لكم في الدنيا بساتين يرزقكم منها أنواع الثمار، ويجعل لكم أنهارا جارية تسقون منها بساتينكم. فالتوبة والاستغفار من أعظم أسباب المطر وحصول أنواع الأرزاق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود: ٣]، وقال عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ﴾ [النحل: ٣٠]، وقال تبارك وتعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال جل شأنه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجن: ١٦].

﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ أي: قال نوح لقومه معاتبا لهم على كفرهم: ما لكم لا تخافون عظمة الله فتوحدوه وتطيعوه؟!

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ أي: وقد خلقكم الله حالا بعد حال، نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، إلى أن يُخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا، ثم يجعلكم شبابا، ثم شيوخا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [غافر: ٦٧].

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥﴾ أي: قال نوح لقومه: ألم تعلموا كيف خلق الله سبع سماوات بعضها فوق بعض، فتستدلوا بذلك على كمال قدرة الله، واستحقاقه للعبادة دون ما سواه؟

﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ أي: وجعل الله القمر في السماوات السبع نورا للأرض ومن عليها، قال ابن

جزي: "القمر في السماء الدنيا، وساغ أن يقول: {فِيهِنَّ} لما كان في إحداهن فهو في الجميع"، وذهب بعض العلماء إلى أن القمر والنجوم دون السماء الدنيا، والله أعلم بخلقه.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦﴾ أي: وجعل الله الشمس ضياء يستضيء به أهل الأرض.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ أي: والله ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب الأرض، وأنشأكم من عناصر الأرض إنشاء. قال الرازي: "في هذه الآية معنيان: الأول: أي: أنبت أباكم من الأرض. والثاني: أن الله أنبت جميع الناس من الأرض؛ لأنه يخلقنا من النطف، وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض". وقال ابن رجب: "أجسام بني آدم وسائر الحيوانات كنبات الأرض تنقلب من حال إلى حال ثم تجف وتصير ترابا".

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨﴾ أي: ثم يعيدكم الله في الأرض بعد موتكم فتُدفنون فيها، وتصيرون ترابا، ويبعثكم من الأرض يوم القيامة للحساب والجزاء متى شاء، فتخرجون من قبوركم أحياء، كما قال تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ٥٥﴾ [طه: ٥٥].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩﴾ أي: والله جعل لكم الأرض مبسوطة كالفِراش، تستقرون عليها وتنتفعون بها. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا﴾ [الزخرف: ١٠].

﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ أي: لتتخذوا من الأرض طرقا واسعة متفرقة، فتمشوا فيها لقضاء حوائجكم المتنوعة، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥].

﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ أي: قال نوح: رب إن قومي عصوني فيما دعوتهم إليه من الإيمان بك وعبادتك.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا ٢١﴾ أي: واتبعوا في الكفر والمعاصي أسيادهم الذين لم تزدهم

كثرة أموالهم وأولادهم إلا بُعدا من الله، وضلالا عن الحق، واستحقاقا للعذاب؛ لعدم شكرهم الله عليها، واستعمالهم لها في معصيته.

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: وكادوا كيدا عظيما بنبيهم وأتباعه المسلمين، واجتهدوا في صد الناس عن الحق، وتزيين الباطل لهم.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: وقال كبراؤهم لأتباعهم: لا تتركوا أصنامكم التي ينهاكم نوح عن عبادتها، ولا تتركوا عبادة الصالحين وَدا وسُواعا ويَغوث ويَعوق ونَسْرا، الذين جعل آباؤنا صورهم أصناما.

قال المفسرون: هذه أسماء رجال صالحين في زمن قوم نوح، كانوا يعبدون الله، ولما ماتوا وسوس الشيطان إلى قومهم أن اصنعوا في مجالسهم أصناما على صورهم، وسموها بأسمائهم، لتتشوقوا إلى عبادة الله إذا ذكرتموهم، ففعلوا ذلك ولم يعبدوهم، فلما مات الذين صنعوهم، وجاء آخرون بعدهم؛ وسوس الشيطان إليهم فقال: إنما كان آباؤكم يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم بعد أن ذهب العلم.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ أي: وقد أضل كبراء الكفار كثيرا من أتباعهم بدعوتهم إلى عبادة الأصنام، وضل كثير من الناس بسبب الأصنام، واستمرت عبادتها في جميع القرون إلى زماننا هذا، كما قال تعالى حاكيا قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: ولا تزد - يا رب - الظالمين أنفسهم بالكفر والتكذيب إلا طبعا على قلوبهم فلا يهتدون إلى الحق حتى يموتوا على ضلالهم، ويزدادوا إثما وعقوبة.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥﴾ أي: بسبب كثرة ذنوب قوم نوح أغرقهم الله، فأُدخلوا بعد موتهم مباشرة نارا في البرزخ يُعذَّبون فيها إلى يوم القيامة، ثم يُدخلون نار جهنم في الآخرة، فلم يجد قوم نوح حين أُغرقوا وأُدخلوا النار أحدا ينصرهم، ويمنع عنهم عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ أي: وقال نوح بعد أن أيس من إيمان قومه: رب لا تترك على الأرض أحدا من قومي الكافرين حيا يذهب ويجيء على وجه الأرض.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارًا ٢٧﴾ أي: إنك - يا رب - إن تترك قومي الكافرين أحياء يضلوا عبادك المؤمنين بصدهم عن دينك، ويضلوا أولادهم بتزيين الشرك لهم، ولا يلدوا إلا من سيكون حين يكبر فاجرا في أعماله، كثير الكفر بربه.

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أي: قال نوح: رب استر عليَّ ذنوبي وعلى والديَّ، ولا تعاقبنا بذنوبنا، واغفر لمن دخل منزلي من أهلي وأتباعي المؤمنين، واغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات المصدقين بتوحيدك، من الأحياء والأموات، وممن سيأتي بعدنا إلى يوم القيامة.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ٢٨﴾ أي: ولا تزد الظالمين أنفسهم بالكفر إلا خسارا وهلاكا في الدنيا والآخرة.

تدبر سورة الجن

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟! فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف نفر من الجن عامدين إلى سوق عكاظ، فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن قالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١، ٢]، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾).

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي: قل - أيها الرسول - لأمتك: أوحى الله إلي أنه استمع جماعة من الجن هذا القرآن فآمنوا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ [الأحقاف: ٢٩] ، والنفر ما بين الثلاثة إلى العشرة.

﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ أي: فقال الجن لقومهم بعد أن استمعوا القرآن ورجعوا إليهم: إنا سمعنا قرآنا عجيبا في بلاغته وفصاحته، عجيبا في صدق أخباره وعدل أحكامه، عجيبا في بركته وتأثير مواعظه، لا يوجد كلام مثله في فضله وبركته.

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢﴾ أي: يدل القرآن على الحق في أمور الدين والدنيا، فصدقنا أنه كلام الله، وآمنا بتوحيد الله بعد استماعنا لكتابه، ولن نعود بعد اليوم إلى أن نشرك بربنا أحدا من خلقه، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٠﴾ [الأحقاف: ٣٠]. قال الشوكاني: "وفي هذا توبيخ للكفار من بني آدم حيث آمنت الجن بسماع القرآن مرة واحدة، وانتفعوا بسماع آيات يسيرة منه، وأدركوا بعقولهم أنه كلام الله، وآمنوا به، ولم ينتفع كفار الإنس بسماعه مرات متعددة!".

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ۝٣﴾ جد الله: عظمته، كما في دعاء استفتاح الصلاة: ((سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك)) تعالى جَدُّك أي: عظمتُك. ومعنى الآية: وأنه تعالت عظمة ربنا عن اتخاذ الزوجة والولد.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ۝٤﴾ أي: قال أولئك الجن الذين آمنوا: وأنه كان يقول إبليس وأتباعه من كفرة الجن على الله كذبا جاوزوا به الحد في الباطل، بادعاء الشريك والصاحبة والولد لله سبحانه.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ۝٥﴾ أي: وأنا قبل سماعنا القرآن وإيماننا بالله كنا نظن أن الإنس والجن لن يجرؤوا على الكذب على الله، فيدَّعون له الشريك والصاحبة والولد كذبا وزورا.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ۝٦﴾ أي: وأنه كان رجال من الإنس - وهم العرب في الجاهلية - يستعيذون في أسفارهم بعظماء الجن؛ ليَسْلَموا من أذى الجن، فزاد الجنُّ الإنسَ إثما باستعاذتهم بهم، وزادوهم خوفا بتجرئهم عليهم، وكذلك زاد الإنسُ الجنَّ إثما وطغيانا وكبرا حين رأوا الإنس يستعيذون بهم.

قال العلماء: من الجن رجال كما أن من الإنس رجال، والجن سُمُّوا جنا لاستتارهم عن الأبصار، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] أي: غطاه وستره، والإنس سُمُّوا إنسا لأنهم يُؤنَسون أي: يُرون، كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠] أي: رأيتها.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾ البعث هنا يحتمل أن يُراد به بعث الرسل أو البعث من القبور، فمعنى الآية: وأن كفار الجن ظنوا كما ظن كفار الإنس أن الله لن يبعث رسولا إلى خلقه يدعوهم إلى توحيده، وظنوا أن الله لن يبعث أحدا يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ أي: قال الجن: وأنا أتينا السماء لنستمع كلام الملائكة الذين فيها فوجدنا السماء مُلِئت حرسا شديدا من الملائكة يحفظونها من الشياطين، وشهبا تحرقهم إذا أرادوا استراق السمع.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ أي: وأنا كنا فيما مضى نقعد من السماء مواضع لأجل استماع ما تقوله الملائكة فيما بينهم مما يأمرهم الله بتدبيره في الأرض، فمن يقصد من الشياطين أن يستمع الآن أخبار السماء يُرمى بشهابٍ من نارٍ قد أُعد لإحراقه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

قال العلماء: الشهب تكاثرت بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم حفظا للقرآن من دسائس الشياطين.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ أي: قال أولئك النفر من الجن: وأنا لا ندري بعد حراسة السماء بالملائكة والشهب أعذابٌ أراد الله أن يُنزله بأهل الأرض أم أراد بهم ربهم هدى وخيرا وصلاحا؟

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ أي: وأنا منا المطيعون لله ومنا دون الموصوفين بالصلاح من الفساق والكفار، كنا مذاهب متعددة، وآراء متفرقة، وأهواء مختلفة كما هو حال الإنس في خلافاتهم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ أي: وأنا علِمنا يقينا أننا لن نفوت الله في الأرض إن أراد عذابنا، ولن نفوته هاربين من عذابه؛ لأننا في سلطانه، وتحت قدرته.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: وأنا لما سمعنا القرآن الذي يهدي إلى الحق صدَّقنا بأنه حق من عند الله، وآمنا بالله ورسوله وكتابه.

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾ أي: فمن يصدق بتوحيد ربه فلا يخاف أن يُنقِص الله شيئا من حسناته، ولا أن يزيد شيئا في سيئاته، ولا يلحقه عذاب ولا إهانة.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: وأنا بعد استماعنا القرآن منا المسلمون المطيعون لله، ومنا الظالمون المائلون عن الإسلام، وإلى هنا انتهى ما حكاه الله من قول أولئك الجن المؤمنين.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ أي: قال الله: فمن أسلم لله بالتوحيد، وخضع له بالطاعة، فأولئك الذين قصدوا اتباع الحق، وهذا هو الواجب على الخلق أن يتحروا الحق الذي رضيه الله لعباده، ولا يغتروا بالدنيا الفانية، ولا بالشبهات المضلة.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ أي: وأما الظالمون المائلون عن الإسلام فكانوا في علم الله وقودا لجهنم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ أي: وأن لو استقام الظالمون على طريقة الحق لأسقيناهم ماء كثيرا، ووسَّعنا عليهم في الرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم فيما وسعنا عليهم من الرزق، فنعلم كيف شكرهم على النعم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧، ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]، وقال عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وروى البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري البدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسط عليكم الدنيا كما بُسِطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم)).

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ أي: ومن يعرض عن القرآن، فلا يؤمن به، ولا يطيع ربه بالعمل به، يدخله الله عذابا شديدا شاقا في جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢]، وقال عز وجل:

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ [المدثر: ١٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ أي: وأحى الله إليَّ أن جميع المساجد لله مِلكا وتشريفا، فلا تشركوا بالله فيها أحدا من خلقه، وأفردوه وحده بالسؤال والعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

قال ابن تيمية: " دين الله تعظيم المساجد التي تشرع فيها الصلوات والاعتكاف وسائر العبادات من القراءة والذكر والدعاء لله وحده لا شريك له، وأما تعظيم المشاهد التي تُبنى على القبور فليس من دين المسلمين".

ويا حسرة على كثير من العباد، مع وضوح هذه الآية الكريمة في النهي عن دعاء غير الله، إلا أننا نجد كثيرا من الناس يدعُون غير الله سبحانه، فمنهم من يدعو نبيا أو يدعو وليا، والدعاء هو العبادة، وصرف الدعاء لغير الله شرك، والله المستعان!

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ أي: وأحى الله إليَّ أنه لما قام الرسول محمدٌ عبدُ الله يدعو الناس إلى توحيد الله، ويعبد الله وحده لا شريك له، قارب جميع مشركي العرب أن يكونوا عليه جماعات بعضها فوق بعض؛ ليطفئوا نور الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: قل - أيها الرسول - للناس: إنما أعبد ربي وحده، ولا

أشرك به أحدا من خلقه.

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ أي: قل - أيها الرسول - لقومك: إني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا، ولا ضلالة ولا هداية، فالمتصرف في الكون هو الله وحده، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: قل - أيها الرسول - لقومك: إني لن يُنقذني من الله أحد إن أراد أن يعذبني لو عصيته أو أراد أن يصيبني بضر، ولن أجد ملجأ غير داخل في مُلك الله ألتجيء إليه من عذاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. قال السعدي: "إذا كان الرسول لا يملك ضرا ولا رشدا، ولا يمنع نفسه من الله شيئا إن أراده بسوء، فغيره من الخلق من بابٍ أولى".

﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ أي: لا أملك إلا أن أُبلِّغكم الحق الذي جاء من عند الله، ورسالاته التي أرسلني بها إليكم، فلا مزية لي عليكم إلا أن الله أوحى إلي أن أبلغكم أوامره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

قال ابن كثير: "ويُحتمل أن يكون المعنى: لا يُجيرني من الله ويخلصني من عذابه إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليَّ، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]".

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا به من التوحيد، فيشرك بالله ويكفر به، فإن له نار جهنم يدخلها، ماكثين فيها أبدا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾ أي: حتى إذا رأى الكفار ما وعدهم الله من عذاب الدنيا والآخرة فسيعلمون في ذلك الوقت من أضعف ناصرا يمنعهم من العذاب، وأقل أتباعا المسلمون أم الكافرون؟ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥﴾ [مريم: ٧٥].

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾ أي: قل - أيها الرسول - لقومك المشركين: ما أدري أقريب وقت ما يعدكم الله من عذاب الدنيا والآخرة أم يجعل له ربي مدة طويلة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾ أي: الله وحده عالم ما غاب عن أبصار خلقه، فلا يُطْلِع الله على علم الغيب الذي اختص به أحدا من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال جل جلاله: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ [النمل: ٦٥]، وقال عز شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

قال العلماء: هذه الآيات تدل على كفر من يدَّعي علم الغيب بواسطة النجوم أو غير ذلك، ولا يجوز الذهاب إلى الكهان والمنجمين والعرافين، ولا سؤالهم.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ أي: لا يُظهِر اللهُ على الغيب أحدا إلا من اصطفاه الله من رسله الذين

يؤيدهم بالمعجزات، فيُطلعهم بالوحي على بعض علم الغيب ليكون ذلك دليلا على نبوتهم.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾ أي: فإن الله يرسل من أمام الرسول الذي يطلعه على بعض الغيب ومن خلفه حرسا كثيرا من الملائكة يحفظونه من الشياطين، فلا تستطيع الشياطين تخليط الوحي على الرسل، ولا استراق شيء من الوحي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: حَفِظ اللهُ رسله بملائكته ليعلم الرسول أن الرسل من قبله قد أبلغوا رسالات ربهم، وتمكنوا من تبليغها بلا تغيير.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ أي: وأحاط علمُ الله بكل ما عند الرسل والملائكة من العلم والتبليغ، وما يعلنون وما يسرون، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ أي: وعَلِمَ اللهُ عدد كل شيء من خلقه، فلا يخفى عليه شيء، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾ [مريم: ٩٣، ٩٤]، وقال سبحانه: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ [يس: ١٢]

تدبر سورة المزمل

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾ أي: يا أيها النبي المتغطي بثيابه.

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: قم الليل للصلاة إلا قليلا منه اجعله للنوم والراحة، قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا، أو زد في صلاتك على نصف الليل.

وحين أنزل الله هذه الآيات كان قيام الليل واجبا على المؤمنين، ثم بعد سنة من نزولها أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا، فشق ذلك على المؤمنين، ثم خفف عنهم فرحمهم، وأنزل الله بعد هذا: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فوسع الله وله الحمد، ولم يضيق).

وقيام الليل للصلاة سنة مؤكدة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ٦٤﴾ [الفرقان: ٦٤]، وقال عز وجل: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقال جل جلاله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾ [الإنسان: ٢٦].

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾ أي: واقرأ القرآن متمهلا بتبيين حروفه بلا عجلة؛ لتفهم معانيه، وتتفكر فيه.

روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يُقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق، ورَتِّل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها))، وروى أبو داود عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((زيِّنوا القرآن بأصواتكم)).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ أي: إنا سننزل عليك - أيها النبي - قرآنا ثقيلا وقت نزوله من عظمته، عظيما في أوصافه، ثقيلا في العمل بأوامره ونواهيه.

وقد جاء في عدة أحاديث أن القرآن حين كان ينزل على النبي عليه الصلاة والسلام كان يشتد عليه حتى يتغير وجهه، ويتقطر جبينه عرقا، وكان إذا نزل عليه الوحي وهو على ناقته أناخت ولم تستطع أن تتحرك، ووضعت عنقها على الأرض من ثقل الوحي، وفي الإخبار بثقل القرآن الذي هو كلام الله إيقاظ للهمم على التشمير في تعلم القرآن والعمل به بقوة وجد وحزم، وتوطين النفس على مكابدة القيام به في الليل، وتبليغه في النهار، قال الله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٧١﴾ [الأعراف: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤﴾ [الطارق: ١٣، ١٤].

روى ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: (القرآن ثقيل مبارك، كما ثقل في الدنيا ثقل في الموازين يوم القيامة).

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ أي: إن الصلاة الناشئة في ساعات الليل أبلغ في القيام لتلاوة القرآن، وإن كانت شاقة لرغبة الإنسان في النوم، لكنها أبين وأصوب في القراءة، وأكثر تفهما من صلاة النهار؛ لهدوء الأصوات، وصفاء الذهن، فهي أكثر أجرا، وأعظم أثرا على نفس المصلي. قال ابن تيمية: "{نَاشِئَةَ اللَّيْلِ} إنما تكون بعد النوم، فإذا قام بعد النوم كانت مواطأة قلبه للسانه أشد؛ لعدم ما يشغل القلب، وكان قوله أقوم".

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ أي: إن لك - أيها النبي - في النهار فراغا طويلا للقيام بالدعوة والتعليم وقضاء حوائجك الدنيوية، فتفرغ في جزء من الليل للصلاة.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ٨﴾ أي: واذكر - أيها النبي - اسم ربك ليلا ونهارا، وانقطع إلى ربك من كل شيء يلهيك عن طاعته انقطاعا تاما بالعبادة الخالصة، واسأله تيسير أمورك وقضاء حاجاتك، ولا تسأل غيره، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))، وروى ابن ماجه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من كانت الدنيا همَّه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة)).

قال ابن عاشور: "المراد بالانقطاع المأمور به الانقطاع عن الأعمال التي تمنعه من قيام الليل، ومهام النهار في نشر الدعوة، قال: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى الله، فكل عمل يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم من أعمال الحياة فهو لدين الله، فإن طعامه وشرابه ونومه وشؤونه للاستعانة على نشر دين الله، وكذلك منعشات الروح البريئة من الإثم مثل الطيب، وتزوج النساء، والأنس إلى أهله وأبنائه، وليس هو التبتل المفضي إلى الرهبانية، وهو الإعراض عن النساء، وعن تدبير أمور الحياة".

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾ أي: خالق ومالك ومدبر المشرق والمغرب وما بينهما من المخلوقات، لا معبود بحق إلا الله سبحانه، فاتخذ الله قائما بأمورك، وفوضها إليه، وأفرده بالتوكل دون ما سواه، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ٥].

والتوكل هو اعتماد القلب على الله، في جلب المنافع ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الأخذ بالأسباب الشرعية، والتوكل عبادة عظيمة، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه ما أهمه من أمور دينه ودنياه.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ أي: واصبر - أيها النبي - على ما يقول المشركون من التكذيب بالحق والاستهزاء بك، واهجرهم هجرا جميلا، لا عتاب معه ولا أذى، وأعرض عن مكافأتهم بمثل قولهم وفعلهم، وهذا الأمر وإن كان خاصا بالنبي عليه الصلاة والسلام فهو عام لأمته. قال الرازي: "المعنى إنك لما اتخذتني وكيلا فاصبر على ما يقولون، وفوض أمر المشركين إليَّ، فإنني لما كنت وكيلا لك أقوم بإصلاح أمرك أحسن من قيامك بإصلاح أمور نفسك".

﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١﴾ أي: ودعني - أيها النبي - والمكذبين بالحق أصحاب الغنى والتنعم في الدنيا، وفوض أمر عقوبتهم إليَّ، ولا تستعجل عقوبتهم، وأخِّرهم وقتا قليلا حتى يأتي ميعاد عذابهم، وتنتهي آجالهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۝٨٤﴾ [مريم: ٨٤]، وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾ [الطارق: ١٧].

وقد أهلك الله صناديد كفار قريش بعد نزول هذه الآية بنحو خمسة عشر عاما في غزوة بدر، روى الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لما نزلت هذه الآية: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ لم يكن إلا يسيرا حتى كانت وقعة بدر).

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢﴾ أي: إن عندنا في الآخرة للكفار قيودا ونارا موقدة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [سبأ: ٣٣]، وقال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾ [الإنسان: ٤].

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾ أي: وعندنا في جهنم للكفار طعاما بشِعا ذا شوك ينشب في حلق آكله، فلا يدخل ولا يخرج، وعذابا موجعا شديدا.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ أي: يعذب الله الكافرين يوم تتزلزل الأرض والجبال وتضطرب بمن عليها، وتصير الجبال رملا سائلا متناثرا ثم تُنسف نسفا، كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦، ٧]، وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات: ١٠].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: إنا أرسلنا إليكم - أيها الناس - رسولا شاهدا يشهد عليكم يوم القيامة بأعمالكم، وهو محمد عليه الصلاة والسلام مثل ما أرسلنا إلى فرعون رسولا يدعوه إلى الحق، وهو موسى عليه الصلاة والسلام.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ أي: فعصى فرعون الرسول موسى الذي أُرسِل إليه، فلم يؤمن به وبما جاء به، فأهلكنا فرعون وجنوده إهلاكا ثقيلا شديدا بإغراقهم أجمعين، وعذابهم في البرزخ إلى يوم الدين، فاحذروا أن تعصوا رسولكم فيهلككم الله كما أهلك فرعون وقومه حين عصوا رسولهم، كما قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ أي: فكيف تتقون - إن كفرتم بالله - عذاب يوم القيامة الذي يشيب فيه الولدان من شدة الأهوال؟!

﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ أي: السماء متشققة بسبب يوم القيامة وأهوالها. وقال بعض المفسرين: ﴿بِهِ﴾ بمعنى فيه، أي: السماء منفطر في يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ أي: كان ما وعد الله خلقه من البعث والحساب والجزاء يوم القيامة واقعا لا محالة، فالله لا يخلف وعده.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ أي: إن آياتِ هذه السورةِ عظةٌ وعبرةٌ لمن اتعظ بها واعتبر، فمن أراد منكم سَلَك إلى ربه طريقا بالإيمان به والتوبة إليه، فحرص على الصلاة في الليل وتلاوة القرآن وذِكْرِ الله سبحانه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: إن ربك - أيها الرسول - يعلم أنك تصلي أقل من ثلثي الليل، وأحيانا تصلي نصف الليل، وأحيانا تصلي ثلث الليل، ويصلي ذلك المقدار أيضا جماعة من أصحابك المؤمنين.

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا - يا رسول الله - وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: ((أفلا أُحب أن أكون عبدا شكورا؟!)).

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: والله يُقدِّر أوقات الليل والنهار، فيعتدلان أحيانا، ويزيد أحدهما على الآخر في بعض الأحيان.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: علم الله أنكم - أيها المؤمنون - لن تطيقوا قيام نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه، فتاب عليكم بسبب عجزكم وضعفكم، وخفف عنكم بنسخ وجوب ذلك المقدار، وأمركم بما لا يشق عليكم، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: فاقرءوا - أيها المسلمون - في الليل ما تيسر لكم من القرآن، وصلُّوا من الليل ولو وقتا قليلا من غير تحديد.

روى أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من قام بعشر آيات لم يُكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كُتِب من القانتين، ومن قام بألف آية كُتِب من المقنطرين)). أي: المكثرين من الأجر.

وينبغي لمن يشق عليه قيام الليل بعد نومه أن يحرص على صلاة أربع ركعات بعد صلاة العشاء، وأن يوتر قبل أن ينام، فإن الصلاة بعد العشاء من قيام الليل، وقد كان كثير من السلف الصالح يصلون أربع ركعات بعد العشاء، ويحثون عليها، وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاث: ((صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام)).

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: علم الله أن سيكون منكم – أيها المسلمون – مرضى، وآخرون يسيرون في الأرض يطلبون بأسفارهم الرزق من فضل الله، وآخرون يجاهدون الكفار في نصرة دين الله، يشق عليهم طول القيام في صلاة الليل، فرحمكم الله بعدم إيجاب قيام الليل عليكم.

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ أي: فاقرءوا – أيها المسلمون – ما تيسر لكم من القرآن حين تصلون في الليل.

روى الترمذي عن عبد الله بن سلَام رضي الله عنه قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كان أول شيء سمعته يقول: ((يا أيها الناس، أفشُوا السلام، وأطعِموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام)).

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: وحافظوا – أيها المسلمون – على إقامة الصلوات الخمس المفروضة بأركانها، وشروطها، وواجباتها، وأعطوا الزكاة الواجبة عليكم في أموالكم أهلها المستحقين لها.

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: وتصدقوا - أيها المسلمون - من أموالكم الطيبة مخلصين لله، وأعطوها مستحقيها بلا منٍّ ولا أذى، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ أي: وما تفعلوا في حياتكم من صلاة وصيام وصدقات وغير ذلك من الأعمال الصالحة تجدوا عند الله ثوابه يوم القيامة هو خيرا لكم من متاع الدنيا، وأعظم ثوابا مما عملتم؛ لأن الله يضاعف لكم الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ أي: واسألوا الله أن يغفر ذنوبكم لتقصيركم في طاعته، ومخالفتكم أحيانا أوامره ونواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣]، وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وروى مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم)).

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ أي: إن الله كثير المغفرة لذنوب التائبين، لا يعذبهم عليها بعد توبتهم، بليغ الرحمة بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾[الزمر: ٥٣].

تدبر سورة المدثر

روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: ((فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملَك الذي جاءني بحِراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئِثتُ منه رعبا، فرجعت فقلت: زمِّلوني زمِّلوني، فدثَّروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ إلى ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ١-٥])).

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾ أي: يا أيها النبي المتغطي بثيابه.

﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ أي: قم - أيها الرسول - فخوِّف المشركين عذاب الله إن لم يوحِّدوا الله، واجتهد في دعوتهم إلى الله.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾ أي: وسيِّدَك ومالكَك ومدبر أمرك - أيها الرسول - فعظِّمه بعبادته وحده، وتنزيهِه عن النقائص، ووصفِهِ بصفات الكمال، ودعوةِ الناس إلى عبادته وتعظيمه، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾ [الإسراء: ١١١].

وتكبير الله يكون باللسان بقولك: الله أكبر، في الصلاة وغيرها، ويكون بالقلب بتعظيم الله، وتعظيم أوامره ونواهيه.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾ في تفسير هذه الآية معنيان مشهوران، الأول: أي: وثيابك فطهرها بالماء من النجاسات، الثاني: أي: وأعمالك فطهرها من الشرك والمعاصي، وكلا المعنيين صحيح.

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾ أي: والأوثان فاترك عبادتها، واترك كل ما يوجب العذاب من الشرك والمعاصي الكبيرة والصغيرة، الظاهرة والباطنة.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ في تفسير هذه الآية ثلاثة معان كلها صحيحة، أي: ولا تعط - أيها الرسول - الناس شيئا ليعطوك أكثر مما أعطيتهم، ولا تمنن على ربك ولا على الناس فتستكثر أعمالك الصالحة، ولا تضعف عن الاستكثار من العمل الصالح.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ أي: ولأجل ربك وحده - أيها الرسول - فاصبر على امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وتحمُّلِ أذى المشركين ومشاقِّ الدعوة، فلك أجر عظيم على تبليغ رسالته.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨﴾ الناقور هو الصور باتفاق المفسرين، وهو شيء كهيئة البوق، أي: فإذا نُفِخ في الصُّور يوم القيامة لبعث الناس من قبورهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ [النبأ: ١٨].

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾ أي: فذلك اليوم الذي يُنفخ فيه في الصُّور يومٌ شديدٌ، تعسر فيه الأمور، وتعظم فيه الأهوال.

﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ أي: يومُ القيامة شديدٌ على الكافرين بالله ورسله، غيرُ سهل ولا هين، ومفهوم ذلك أن يوم القيامة يُسَهِّله الله على المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾ [الإنسان: ١١].

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾ أجمع المفسرون على أن هذه الآيات أُنزِلت في الوليد بن المغيرة المخزومي. أي: دعني - أيها الرسول - والكافر الذي خلقته في بطن أمه وحده، وخرج من بطنها بلا مال ولا ولد، ثم رزقته الأموال والبنين، فكفر ولم يؤمن بي، وفوِّض أمر عقوبته إليَّ.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾ أي: وأعطيت هذا الكافر مالا واسعا كثيرا، لا ينقطع عنه خيره.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ أي: وأعطيت هذا الكافر أبناء حاضرين معه، لا يغيبون عنه، فهو يقضي بهم حوائجه.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ١٤﴾ أي: وبسطت لهذا الكافر في العيش بسطا، ومكنته من الأموال والرئاسة وطول العمر.

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥﴾ أي: ثم يرجو هذا الكافر أن أدخله الجنة مع كفره! كما قال تعالى: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨﴾ [المعارج: ٣٨].

﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾ أي: كلا لن أدخل هذا الكافر الجنة كما يرجو؛ لأنه كان لآيات الله معاندا، لا ينقاد للحق مع وضوحه.

﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ أي: سأكلف هذا الكافر في جهنم عذابا شاقا، لا يُخفف عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧﴾ [الجن: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾ أي: إنَّ هذا الكافر - وهو الوليد بن المغيرة سيد قريش - فكَّر في أمر القرآن ليصد الناس عنه، وهيَّأ في نفسه ما يقول فيه من الباطل.

﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩﴾ أي: فلُعِن هذا الكافر كيف هيأ في نفسه ادِّعاء الباطل في القرآن!

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠﴾ أي: ثم لُعِن هذا الكافر بعد اللعن الأول كيف هيأ في نفسه ادِّعاء الباطل في القرآن! وهذا التكرير للتأكيد.

﴿ثُمَّ نَظَرَ ٢١﴾ أي: ثم تفكَّر هذا الكافر في أمر القرآن مرة بعد أخرى بحثا عن شيء يطعن به فيه.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢﴾ أي: ثم قبض هذا الكافر ما بين عينيه، وتغير لون وجهه إلى السواد؛ لأنه لم يجد شيئا يطعن به في القرآن.

﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣﴾ أي: ثم تولى هذا الكافر عن الإيمان بالقرآن، واستكبر عن قبول الحق مع تبينه

كمال القرآن في ألفاظه ومعانيه، وعدم وجود أيِّ باطلٍ فيه.

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾ أي: فقال هذا الكافر: ما هذا القرآن إلا سحر ينقله محمد عن غيره من السحرة.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥﴾ أي: ما هذا القرآن إلا كلامُ الناس، وليس كلام الله.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦﴾ قال الله: سأدخل هذا المكذِّب بالقرآن جهنم، فتحيط به من جميع جوانبه.

وهكذا كل من كذَّب بالقرآن وادَّعى أنه كلام البشر يعذبه الله في جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾ [هود: ١٧].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ أي: وما أعلمك - أيها الإنسان - أي شيء سقر، وشدة عذابها وأهوالها؟!

﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ أي: لا تُبقي جهنم من دخل فيها حيا بلا عذاب، ولا تُبقي من جسمه شيئا بلا إحراق، ولا تتركه ميتا فيستريح من عذابها.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾ أي: جهنم محرِقةٌ للناس، مغيرةٌ لجلودهم إلى السواد.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ أي: على جهنم تسعة عشر ملَكا، يتولون عذاب أهلها.

قال المفسرون: هؤلاء الملائكة التسعة عشر هم رؤساء خزنة جهنم، وكبيرهم اسمه مالك، وأما عددهم جميعهم فلا يعلمه إلا الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝٤٩﴾ [غافر: ٤٩]، وقال عز وجل: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ أي: وما جعلنا خزنة جهنم التسعة عشر إلا ملائكة عليهم السلام.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وما جعلنا ذكر عدد خزنة جهنم التسعة عشر إلا اختبارا لكفار قريش، ومحنة لهم، وسببا لزيادة ضلالهم؛ لأنهم كذَّبوا بكون هذا العدد القليل يتولى تعذيب أهل النار، واستهزأوا بهذا الخبر.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي: ذكرنا في القرآن عدد خزنة جهنم ليستيقن علماء اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل بأن عدد خزنة جهنم تسعة عشر لموافقة كتبهم للقرآن، ويوقنوا بأن القرآن حق، وأنَّ محمدا رسول الله.

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ أي: وذكرنا عدد خزنة جهنم ليزداد المؤمنون إيمانا بتصديقهم بما أخبر الله به في كتابه.

﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ولا يشك أهل التوراة والإنجيل والمؤمنون بالله ورسوله بما أخبر الله من عدد خزنة جهنم.

﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ أي: وليقول الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق، والكافرون بالله ورسوله: ما الحكمة من ذكر الله هذا العدد عن خزنة جهنم دون غيره؟! فيُفتنون بتكذيب آيات الله.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: كما أضل الله الذين كذَّبوا بعدد خزنة جهنم وهدى الذين صدَّقوا به كذلك يضل الله من يشاء من عباده فيخذلهم عن اتباع الحق، ويهدي من يشاء من عباده فيوفقهم لاتباع الحق، ولله الحكمة البالغة فيما يختبر به عباده.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: وما يعلم عدد جنود ربك وكثرتهم من الملائكة وغيرهم إلا الله وحده.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ أي: وما نار جهنم إلا تذكرة للناس، ليخافوا عذاب الله.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: حقًّا أُقسم بالقمر الدال في خلقه وحركته على كمال قدرة الله وحكمته.

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: وأُقسم بالليل وقت ذهابه عند الفجر.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: وأُقسم بالصبح إذا تبين نوره.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ أي: إن جهنم إحدى الأمور الكبرى، والمصائبِ العظمى، في حال كونها نذيرا للناس.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: لمن شاء منكم - أيها الناس - أن يتقدم بالاهتداء إلى الحق وفعل الطاعات أو يتأخرَ برد الحق وفعل المعاصي. قال ابن القيم: "العبد سائر لا واقف، فإما إلى أمام وإما إلى وراء، فمسرعٌ ومبطئ، ومتقدمٌ ومتأخر، فمن لم يتقدم إلى الجنة بالأعمال الصالحة فهو متأخرٌ إلى النار بالأعمال السيئة".

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي: كل نفس بما عملت في الدنيا من المعاصي محبوسة في النار.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: إلا المؤمنين الذين يُعطون كتب أعمالهم بأيمانهم لا يُحبسون في النار بذنوبهم؛ لأن الله يغفرها لهم.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ أي: المؤمنون في بساتين الجنة يسأل بعضهم بعضا عن المجرمين أصحاب النار.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: يقول المؤمنون للمجرمين: ما أوجب دخولَكم جهنم؟!

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: قال المجرمون للمؤمنين: أدخَلَنا النارَ أننا لم نكن في الدنيا من المؤمنين المصلين لله بإخلاص، وفي هذا بيان أن ترك الصلاة من صفات المجرمين، فعلى المسلم أن يحرص على

المحافظة على الصلوات كما أمره الله.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ولم نكن في الدنيا نطعم المساكين، فبخلنا بما أوجب الله علينا من الزكاة والصدقات.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: وكنا في الدنيا نخوض في الباطل قولا وعملا بلا علم مع من يخوض فيه من الغاوين الذين اغتررنا بهم، كما قال تعالى حاكيا قول أهل النار: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء: ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧]، وقال عز وجل: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف: ٨٣].

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾ أي: وكنا في الدنيا نكذب بيوم الحساب والجزاء، ولا نصدق بالبعث والجنة والنار.

﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ أي: فاستمرينا على الكفر والمعاصي حتى جاءنا الموت فأيقنا بالحق الذي كنا نُكذِّب به، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩].

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: فما تنفع الكافرين شفاعة الشافعين من الملائكة والأنبياء والشهداء والصالحين، حين يقبل الله شفاعتهم في المذنبين الموحدين.

قال العلماء: هذا دليل على صحة الشفاعة للمذنبين، فالله يرحم المذنبين الموحدين، ويُخرج من النار من دخل فيها منهم، ولا يخلد في النار إلا الكفار، وليس للكفار شفيع يشفع فيهم، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨]، ولا تكون الشفاعة إلا من بعد إذن الله، لمن يشاء من المسلمين الموحدين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: فما للكفار عن القرآن الذي يُذكَّرون به معرضين، لا يستمعون له، ولا يتدبرونه، ولا يعملون به؟! كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ الحمر: جمع حمار، وهو الحمار الوحشي، والقسورة هو الأسد أو الرماة الصيادون، أي: كأن الكفار في إعراضهم عن القرآن ونفورهم عن الحق حُمُر وحشٍ هربت أشد الهرب من أسد أو من جماعة رماة يتصيدونها. قال ابن القيم: "شبه الله الكفار في إعراضهم عن القرآن بحُمُرٍ رأت الأسد أو الرماة ففرت، فالكفار من جهلهم بالحق كالحُمُر التي لا تعقل شيئا، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرماة نفرت أشد النفور، وكذلك الكفار نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم كنفور الحمير عما يهلكها! وهي لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضا، فكأنها تواصت بالنفور، وتواطأت عليه!".

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ أي: بل يريد كل واحد من الكفار أن ينزل الله عليه كتابا من السماء كما أنزل على نبيه محمد، ويكون الكتاب مفتوحا غير مطوي لحداثة كتابته! كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: لن نعطي كل واحد من الكفار كتابا خاصا، وليس الأمر كما زعموا أنهم سيؤمنون لو أتتهم صحفا منشرة خاصة بكل واحد منهم، لكنهم لا يخافون عذاب الله في الآخرة؛ لأنهم لا يُصدِّقون بالبعث بعد الموت، فأعرضوا بسبب ذلك عن القرآن، واغتروا بالدنيا حتى هلكوا.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ أي: حقا إن القرآن عظة عظيمة لجميع الناس.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝٥٥﴾ أي: فمن شاء من الناس اتعظ بهذا القرآن وتدبره، وعمل بما فيه من الأوامر والنواهي، فقد بيَّن الله فيه الحق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۝١٩﴾ [المزمل: ١٩].

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: وما يتعظون بالقرآن ويعملون به إلا أن يشاء الله لهم أن يتعظوا ويهتدوا به؛ لأنه لا أحد يقدر على الاهتداء للحق والعمل الصالح إلا بمشيئة الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٩].

﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ۝٥٦﴾ أي: الله وحده مستحقٌ أن يخافه عباده، ويتقوا عقابه بفعل أوامره، واجتناب نواهيه، ومستحقٌ وحده أن يغفر ذنوب عباده، فمن تاب تاب الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

تدبر سورة القيامة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١﴾ أي: أُقسم بيوم القيامة الذي يقوم فيه الناس من قبورهم أحياء للحساب والجزاء.

قال العلماء: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ توكيد للقسم، فـ﴿لَآ﴾ صلة لتأكيد القسم، وليست نافية.

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ أي: وأُقسم بالنفس التي تلوم صاحبَها على ترك الطاعات وفعل السيئات.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾ أي: أيظن الإنسان المكذِّب بالبعث أن لن نقدر يوم القيامة على جمع عظامه المفتتة من أماكنها المتفرقة؟! كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۝٤٩﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ أي: بلى نقدر على جمع عظام الإنسان في حال كوننا قادرين يوم القيامة حتى على جمع عظام أصابعه وخلقها من جديد مع صغرها، ونقدر - لو شئنا - أن نجعل في الدنيا جميع أصابعه مستوية.

وفي الآية إشارة إلى اختلاف بصمات الناس، فيدخل في معنى الآية: قدرة الله على تسوية بصمات أصابع الناس، وهذا من الإعجاز العلمي في القرآن. والناس في الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ثلاثة أصناف، طرفان ووسط:

الصنف الأول: قوم بالغوا في إثبات الإعجاز العلمي في القرآن، وتكلفوا في حمل كثير من الآيات على بعض الحقائق العلمية مع عدم احتمال اللفظ القرآني لما ذهبوا إليه، وفسروا بعض الآيات القرآنية وفق بعض النظريات التي لم تثبت بالأدلة القطعية، وهؤلاء غلوا وأفرطوا وتكلفوا. الصنف

الثاني: قوم نفوا الإعجاز العلمي في القرآن جملة وتفصيلا، وهؤلاء جفوا وفرَّطوا وقصروا. الصنف الثالث: قوم توسطوا، فأثبتوا من الإعجاز العلمي ما احتمله لفظ القرآن بلا تكلف، بشرط أن يكون الإعجاز في حقيقةٍ علميةٍ لا نظريةٍ قابلةٍ للقبول والرد، فإن ثبت الإعجاز فسروا الآية بما فسرها السلف أولا بالإضافة إلى المعنى الجديد، والقرآن الكريم حمَّال أوجه، فما احتمله لفظ القرآن موافقا لقواعد اللغة ولم يكن مخالفا لما ثبت في الكتاب والسنة؛ فإنه مقبول سواء كان هذا القول قديما أو جديدا؛ فإن القرآن العظيم لا تنقضي عجائبه، وهذا هو الموقف الصحيح من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، بلا إفراط ولا تفريط.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥﴾ المراد بالإنسان هنا الكافر أو العاصي، وفي معنى الآية قولان مشهوران لأهل العلم:

القول الأول: أي: بل يريد الإنسان أن يكفر ويعصي الله أبدا ما امتد عمره، وليس في نيته أن يتوب إلى الله أبدا، ولا يقطعه عن الكفر والمعاصي إلا الموت.

القول الثاني: أي: بل يريد الإنسان أن يُكذِّب بيوم القيامة الذي هو أمامه، وكلا المعنيين صحيح يحتمله لفظ الآية.

﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ أي: يسأل الإنسان المصر على الكفر والمعاصي: متى يوم القيامة؟ تكذيبا بوقوعها! كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٨﴾[يونس: ٤٨].

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ۝٧﴾ أي: فإذا شخَصَ بصر الإنسان واستمر فاتحا عينيه من شدة أهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ۝٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ ۝٨﴾ أي: وذهب ضوء القمر يوم القيامة ذهابا مستمرا.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ۝٩﴾ أي: وجمع الله بين الشمس والقمر في نار جهنم، وإنما يفعل ذلك بهما ليعلم من عبدَهما في الدنيا أنهم كانوا كاذبين، ويتحسروا حين يرون آلهتهم معهم في جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الشمس والقمر مكوَّران يوم القيامة)).

فالله سبحانه يجمع يوم القيامة عظام كل إنسان بعد تفرق ها، ويجمع الشمس والقمر بقدرته، مع كونهما لم يجتمعا في مكان واحد في الدنيا.

﴿يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ۝١٠﴾ أي: يقول الإنسان يوم يرى أهوال القيامة: أين المهرب؟

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ أي: يقول الله: ليس هناك يوم القيامة مكان يلجأ إليه أحد من عذاب الله، لا حصن ولا جبل ولا غير ذلك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾ أي: إلى ربك - أيها الإنسان - يوم القيامة المرجع للحساب، والاستقرار إما في الجنة وإما في النار.

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ أي: يُخبَّر الإنسان يوم القيامة بكل أعماله، أولها وآخرها، خيرها وشرها، ما عمله منها وما لم يعمله، ما قدَّمه في حياته وما أخَّره إلى بعد موته، من سنة حسنة أو سيئة.

﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ۝١٤﴾ أي: بل الإنسان شهيد على نفسه يوم القيامة، تشهد عليه جوارحه بأعماله، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٤﴾ [النور: ٢٤].

﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾ أي: ولو اعتذر الإنسان بأقواله وجادل بالباطل عن كفره ومعاصيه، فلا ينفعه الاعتذار والإنكار، كما قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾ [الروم: ٥٧].

﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦﴾ هذه الآيات لها سبب نزول: روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرك شفتيه حين نزول القرآن، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما قرأه جبريل).

فمعنى الآية: لا تحرك - أيها الرسول - بالقرآن لسانك لتعجل بحفظه قبل أن ينتهي جبريل من قراءته عليك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾ أي: إن علينا - أيها الرسول - أن نجمع القرآن في صدرك فتحفظه، وتقرأه غيبا بتوفيق الله، فلا تحتاج إلى تحريك لسانك عند نزوله، فقد ضمن الله لك حفظه.

﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾ أي: فإذا قرأ جبريل عليك القرآن فاستمع قراءته، واقرأ القرآن كما أقرأك جبريل، واتبع أوامر القرآن ونواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

قال ابن جُزَي: "جعل قراءة جبريل قراءة الله لأنها من عنده"، وقال ابن القيم: "ما يُسنده سبحانه إلى نفسه بصيغة ضمير الجمع قد يريد به ملائكته كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾"، وقال ابن تيمية: "النبي صلى الله عليه وسلم سمع القرآن من جبريل، وجبريل سمعه من الله عز وجل، وأما قوله: ﴿نَتۡلُواْ﴾ [القصص: ٣] و ﴿نَقُصُّ﴾ [يوسف: ٣] ونحوه؛ فهذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم

الذي له أعوان يطيعونه، فإذا فعل أعوانه فعلا بأمره قال: نحن فعلنا، كما يقول الملك: نحن فتحنا هذا البلد".

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أي: ثم إن علينا أن نبين لك - أيها الرسول - معاني القرآن وأحكامَه بالتفصيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤].

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: حقا بل تحبون - أيها الناس - الحياة الدنيا، وتنشغلون بها عن عبادة الله.

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ أي: وتتركون الآخرة فلا تؤمنون بها، ولا تعملون الأعمال الصالحة استعدادا لها.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: وجوهٌ يوم القيامة حسنةٌ مشرقةٌ من أثر النعيم والسرور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: تنظر إلى ربها، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله سبحانه.

وروى البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: ((أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُّونَ في رؤيته)).

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: ((هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟)) قالوا: لا

يا رسول الله، قال: ((فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟)) قالوا: لا، قال: ((فإنكم ترونه كذلك)).

قال ابن جُزَي: "هذا من النظر بالعين، وهو نص في نظر المؤمنين إلى الله تعالى في الآخرة، وهو مذهب أهل السنة، وأنكره المعتزلة، وتأولوا ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بأن معناه: منتظرة، وهذا باطل؛ لأن نظر بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف جر، تقول: نظرتك أي: انتظرتك، وأما المتعدي بإلى فهو من نظر العين، ومنه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٣] ... وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في النظر إلى الله أحاديث صحيحة مستفيضة صريحة المعنى، لا تحتمل التأويل، فهي تفسير الآية".

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ أي: ووجوهٌ يوم القيامة مُسْوَدَّةٌ كالحة من شدة العذاب والخوف، كما قال تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٤٠ - ٤٢].

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ قال المفسرون: الظن هنا بمعنى اليقين. أي: يوقن الكفار أن يُعمل بهم داهية، وهي العذاب الشديد في جهنم.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾﴾ التراقي: جمع تَرْقُوَةٍ، وهي ثغرة النحر، أي: حقا إذا بلغت روح الإنسان عند موته أعلى عظام صدره في آخر حالات احتضاره.

﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: وقال أهل المحتضِر ومن حوله من الناس: هل من طبيبٍ راقٍ يَرقيه ليُشفى؟ فقد انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: وأيقن المحتضِر بمفارقة الدنيا والأموال والأهل والأولاد والأحباب.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: واجتمع على المحتضِر شدةُ مفارقة الدنيا مع شدة إقبال الآخرة.

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ قال: (آخر يوم من

الدنيا، وأول يوم من الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة، إلا من رحم الله). وعن الحسن البصري قال: (لفهما في الكفن).

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ أي: إلى خالقك يوم يموت الميتُ ثم يوم القيامة يُساقُ الإنسانُ إلى ربه ليلقى جزاءه.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾ أي: فلا صدَّق الكافر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ولا صلى الصلوات الخمس التي فرضها الله على عباده.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ أي: ولكن كذَّب بالحق فلم يؤمن به، وأعرض عن طاعة الله في أمره ونهيه.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ أي: ثم مضى الكافر إلى أهله يتبختر في مشيه متكبرا، لا يبالي بكفره ومعاصيه، ولا عاقبة أمره! كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١﴾ [المطففين: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾ [الانشقاق: ١٣].

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤﴾ توعد الله الكافر بالعذاب فقال: ولِيَك الهلاك، وقرُب منك المكروه. قال ابن عطية: "المعنى: أولى لك الازدجار والانتهاء، والعرب تستعمل هذه الكلمةَ زجرا، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]".

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥﴾ أي: ثم ولِيَك الهلاك، وقرُب منك المكروه.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ أي: أيظن الإنسان أن يتركه الله في الدنيا مهملا لا يُؤمر ولا يُنهى، ولا يبعثه في الآخرة للثواب والعقاب؟!

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ أي: ألم يكن الإنسان في أول أمره ماء قليلا من مني الرجل يُصَب في رحم المرأة؟!

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي: ثم صار الإنسانُ بعد النطفة قطعةَ دم جامد، فخلقه الله ونفخ فيه الروح، وسوى جسمه معتدلا بقدرته.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي: فجعل الله من الإنسان أولادا له من الصنفين ذكورا وإناثا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي: أليس الله الذي خلق الإنسان من نطفة، وجعل له أولادا من الذكور والإناث، بقادر على أن يحيي الموتى بعد أن صاروا ترابا، ويعيدَهم كما كانوا في الدنيا؟! بلى، فالذي قدر على خلق الإنسان من نُطفةٍ قادرٌ على إعادته يوم القيامة.

تدبر سورة الإنسان

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الجمعة في صلاة الفجر الم تنزيل السجدة، وهل أتى على الإنسان حين من الدهر).

هذه السورة مكية كما قال أكثر أهل العلم، وبيَّن العلماء خطأ من ذكر أن آية إطعام المسكين واليتيم والأسير نزلت في علي بن أبي طالب وأهله رضي الله عنهم، فقد نزلت هذه السورة في مكة قبل أن يتزوج علي بفاطمة رضي الله عنها، وقبل أن يُولد الحسن والحسين رضي الله عنهما، فزواج علي بفاطمة رضي الله عنهما كان في المدينة بعد غزوة بدر.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ أي: هل جاء على الإنسان قبل أن يُخلق زمن طويل لم يكن فيه شيئا يُذكر؟ والإنسان هنا جنس بني آدم، والحين الذي مر على الإنسان عندما كان عدما، فإنه لم يكن له ذِكرٌ في تلك المدة الطويلة، وسمي إنسانا باعتبار ما صار إليه، والغرض من هذا التنبيه على أن الإنسان مخلوق، فعليه أن يعبد اللهَ الذي أوجده من العدم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: إنا خلقنا كل إنسان من منيٍ قليلٍ، أخلاطٍ من ماء الرجل وماء المرأة؛ لأجل أن نختبره في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ أي: فجعلنا الإنسان ذا سمع يسمع به الأصوات، وذا بصر يبصر به المرئيات، نعمة من الله عليه ليشكره، وحجة له عليه ليتمكن من معرفة الحق بسمعه وبصره، وتمييزِ ما ينفعُه ويَضُرُّه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ أي: إنا بينا للإنسان طريق الحق الذي يوصله إلى الجنة إن شكر، وطريق الباطل الذي يوصله إلى النار إن كفر، ليكون إما شاكرا لنعم الله طائعا موحدا، وإما كفورا لنعم الله مشركا عاصيا.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ أي: إنا أعددنا للكافرين في جهنم سلاسل يُعذَّبون بها، وقيودا تجمع أيديهم إلى أعناقهم، ونارا تتوقد عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر: ٧١]، وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٢].

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ أي: إن المطيعين ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يشربون في الجنة من إناء فيه خمرٌ ممزوجةٌ بكافورٍ باردٍ طيبِ الطعمِ والرائحة.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ أي: خمر الجنة الممزوجةُ بالكافور من عينٍ جاريةٍ لا تنقطع، يلتذ بها عباد الله الصالحون، يتصرفون بإجرائها في الجنة كما يشاءون، إلى قصورهم وبساتينهم وأماكنهم التي يريدون.

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ أي: الأبرار كانوا في الدنيا يوفون بنذورهم التي نذروها طاعة لله، مما هو واجب بأصل الشرع، أو ألزموا به أنفسهم، فهم يكثرون من الطاعات، وإذا نذروا لله طاعة وفوا بها.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ أي: ويخاف الأبرار يوم القيامة الذي كان شره منتشرا فاشيا عاما على جميع المخلوقات العُلْوية والسُّفلية، فلذلك امتثلوا الواجبات، وتركوا المحرمات خوفا من الحساب يوم القيامة.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ أي: ويطعم الأبرارُ الطعام مع محبتهم له المساكين، والأطفال المحتاجين الذين مات آباؤهم، وأسرى الكفار والمحبوسين من المسلمين. قال القرطبي:

"الصحيح أن هذه الآية عامة نزلت في جميع الأبرار".

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ أي: يقول الأبرار: إنما نطعمكم - أيها المحتاجون - مخلصين لوجه الله، طلبا لرضاه وثوابه، لا نطلب منكم مجازاة بفعل شيء تكافئوننا به، ولا نريد منكم كلمة شكر وثناء تقولونها لنا. ويُحتمل أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم، ولكن علِمه الله من قلوبهم، فأثنى عليهم بالإخلاص؛ ليبين عن صحة نيتهم في صدقاتهم. ويُحتمل أنهم يقولون ذلك تأنيسا للمحتاجين، ودفعا لانكسار نفوسهم.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ أي: يقول الأبرار المتصدقون بالطعام: إنا نخاف من ربنا عذابَ يومِ القيامة الضيقِ الشديدِ الأهوال، الطويلِ المقدار، الذي تعبس في الوجوه من شدة بلائه، كما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، وقال سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القيامة: ٢٤].

وروى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان يتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة).

﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ أي: فدفع الله عن الأبرار أهوالَ يوم القيامة بسببِ أعمالهم الصالحة وخوفهم من الله، وأعطى الأبرار حُسنا في وجوههم، وفرحا في قلوبهم، فيجمع لهم بين حسن الظاهر والباطن.

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي: وجزى الله الأبرار بسبب صبرهم في الدنيا على طاعة الله وعن معصيته وعلى المصائب جنة يدخلونها، وحريرا يلبسونه.

﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: في حال كون أهل الجنة جالسين بتمكن وارتفاق على السرر المغطاة

بالحجال. والحَجَلة: ثياب رقيقة تكون فوق السرير، قال بعض علماء اللغة: لا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان معه حَجَلة، وقال بعضهم: السرير المريح يسمى أريكة وإن لم يكن معه حَجَلة.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ أي: لا يرى الأبرار في الجنة شمسا يؤذيهم حرها، ولا بردا شديدا يضرهم.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي: وقريبة على الأبرار ظلالُ أشجار الجنة، وهو ظلال عجيب! يخلقه الله لأهل الجنة من غير وجود شمس؛ ليتنعموا بالجلوس فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [المرسلات: ٤١، ٤٢].

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾﴾ أي: وسُهِّل للأبرار قطف ثمار أشجار الجنة كيف شاءوا، قعودا وقياما ومضطجعين، كما قال تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال سبحانه: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٢٣].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾﴾ أي: ويطوف خدم أهل الجنة على الأبرار بآنية فيها طعام، وأكوابٍ لا آذان لها ولا عُرى فيها شراب، جعل الله بقدرته تلك الأكواب التي من فضة في صفاء الزُّجاج.

﴿قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ﴾ أي: تلك الأكواب التي في صفاء الزجاج هي من فضة بيضاء، وهذا من أعجب الأشياء! فقد اجتمع لها بياضُ الفضة، وصفاءُ الزجاج، ولا نظير لهذا في الدنيا.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ أي: قدَّر خدم أهل الجنة الأكواب على المقدار الذي يريد الأبرار شربه، بلا زيادةٍ ولا نقصان.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾ أي: ويُسقى الأبرار في الجنة إناءَ خمرٍ ممزوجةٍ بزنجبيلٍ طيبٍ

الرائحة. وهذه كأس خمرٍ أخرى غيرُ الكأس الأولى التي يُمزج فيها الكافور، وأهل الجنة يشربون ويأكلون تلذذا، من غير عطش ولا جوع، فالله ينوع لهم النعيم بأنواع الملذات، فلا يسأمون شيئا منها.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ أي: شراب الأبرار الممزوجُ بالزنجبيل من عينٍ غزيرةٍ يسميها أهل الجنة سلسبيل؛ لشدة جريها في موضعها، ولسلاستها في الحلق عند شربها.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ أي: ويتردد على أهل الجنة لخدمتهم غلمان صغار على سن واحدة، لا يهرمون ولا يموتون، يخلق هم الله لخدمة أهل الجنة، إذا رأيت هؤلاءِ الولدانَ وهم منتشرون في خدمة أهل الجنة تظنهم في حسنهم وبياضهم وكثرتهم لؤلؤا مصبوبا مفرَّقا.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ أي: وإذا نظرت هناك في الجنة أبصرت نعيما ومُلكا عظيما أعده الله لكل مؤمن في الجنة.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧])).

وفي الصحيحين أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها))، واقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقعة: ٣٠].

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي: فوق أهل الجنة ثيابُ حريرٍ رقيقٍ أخضر اللون، وحريرٍ غليظٍ له بريقٌ يلبسونه فوق الثياب الرقيقةِ للزينة والجمال، وخص الله اللون الأخضر لأنه أمتع للعين،

ولأنه كان قديما من لباس الملوك، وإلا فأهل الجنة يلبسون ما يشاءون من ألوان الثياب.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: وحلَّى الله الأبرار ذكورا وإناثا أساور فضة يلبسونها في سواعدهم زينة لهم.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((تبلغُ الحِليةُ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء)).

وهذا المذكور في هذه السورة من آنية الفضة والحلي من الفضة هو نعيم أهل الجنة من الأبرار أصحاب اليمين، أما السابقون المقربون فآنيتهم وحليهم من الذهب، كما قال الله في آية أخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [الحج: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١].

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((جنتان من فضة آنيتهما، وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما، وما فيهما)).

وقد ذكر الله تفاوت نعيم أهل الجنة في آخر سورة الرحمن، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، فوصفهما بأحسن الأوصاف، وهما للمقربين المحسنين، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٦٢]، وهما لأصحاب اليمين، وقال سبحانه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ٧ - ١٢].

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾﴾ أي: وسقى الله الأبرار شرابا يطهر بواطنهم من كل أذى، فبواطنهم مطهرةٌ من الحسد والحقد وسائر الأخلاق الرديئة، ولا يحتاجون إلى إزالة أيِّ أذى من أجسامهم.

روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن أهل الجنة

يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفُلون، ولا يبولـون، ولا يتغوطـون، ولا يمتخطـون، طعـامُهم جُشَـاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسك)).

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: يقول الله للأبرار تكريما لهم: إن هـذا النعـيم الـذي أعطيناكم في الجنة كان لكم ثوابا على ما عملتم في الدنيا من الأعمال الصالحة، ومـا عملـتم في الـدنيا من عمل صالح شكره الله لكم، وتقبله منكم ولو كان قليلا، وأثابكم عليه ثوابا عظيما.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: إنا نحن وحدَنا لا غيرنا نزلنا عليك - أيها الرسول - القرآنَ إنزالا مُفرَّقا بحسب الحكمة، وهو كلام الله ليس كلامَ غيره.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: فاصبر - أيها الرسول - لما حكم الله به عليك مـن تبليـغ رسـالته، والعمـل بشريعته، وما يُقدِّره عليك من مصائب الدنيا، وانتظر نصر الله لـك عـلى المشرـكين، ولا تسـتعجل عذابهم.

والآية عامة لكل المسلمين، فعلى المسلم أن يصبر على حكـم الله الشرـعي، وعـلى حكـم الله الكـوني القدري، فما شرعه الله من الواجبات والمحرمات يصبر على امتثاله، وما قدَّره عليه من مصائبَ يصبر على تحمله.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ أي: ولا تطع فاجرا يـدعوك إلى معصـية الله أو كـافرا يـدعوك إلى الكفر بالله، فعلى المسلم أن يحذر ممن يدعوه إلى التهاون بالطاعات وارتكـاب المعـاصي أو يـدعوه إلى الكفر والإلحاد.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ أي: واذكر - أيها العبد - اسم ربك أول النهار في صلاة الصبح، وآخر النهار في صلاة الظهر والعصر، ويدخل في ذلك: صلاةُ النوافل في هذه الأوقات، والتسبيح،

والتحميد، والتهليل، والتكبير، وأذكارُ الصباح والمساء، كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ أي: ومن الليل فأكثر من السجود لله في صلاتك الفريضة والنافلة كصلاة المغرب والعشاء، وقيام الليل والوتر، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤].

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: وسبِّح الله بتنزيهه عن النقائص وقتا طويلا في الركوع والسجود في صلاة الليل، وفي غير الصلاة أيضا، كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ أي: إن الكفار والفسقة يحبون الحياة الدنيا، فهم حريصون على طول العيش فيها، والتمتعِ بملذاتها، ويتركون خلف ظهورهم يومَ القيامة الثقيلَ بأهواله، فلا يعملون بما ينجيهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي: نحن خلقنا الناس من العدم، وربطنا أجزاء أجسادهم بالعظام والمفاصل والأعصاب والعروق، فصارت أبدانُهم مشدودة قوية؛ ليطيعوني، ويشكروني.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ أي: وإذا أردنا بعثناهم يوم القيامة، وأعدنا أجسامهم من جديد كما كانوا في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة: ٦٠ - ٦٢].

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾ أي: إن آياتِ هذه السورةِ عظةٌ وعبرةٌ لمن اتعظ بها واعتبر، فمن أراد سَلَك إلى ربه طريقا بالإيمان به والتوبة إليه.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أي: وما تشاءون - أيها الناس - اتباعَ طريق الحق بالإيمان والعمل الصالح إلا أن يشاءَ الله أن يهديكم، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ أي: إن الله كان ولم يزل عليما بكل شيء، لا يخفى عليه أعمالُكم الظاهرة والباطنة، حكيما في هداية من يهديه، وإضلالِ من يضله.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ أي: يدخل الله من يشاء من عباده في رحمته بتوفيقهم في الدنيا إلى التوبة والإيمان والعمل الصالح، ثم يدخلهم في الآخرة جنته.

﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أي: وأعد الله للظالمين عذابا موجعا في جهنم.

ومن الظلم أن يتعدى الإنسان حدود الله، ومن الظلم أن يتعدى الإنسان على عباد الله، ومن الظلم أن يترك الإنسان التوبة من الكفر والمعاصي، فيظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات: ١١].

تدبر سورة المرسلات

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١﴾ أي: أُقسم بالرياح التي يُرسلها الله بقدرته يتبع بعضها بعضا، كما قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ٢﴾ أي: فالرياح الشديدة الهبوب.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ٣﴾ أي: وأُقسم بالرياح التي تَنشُر السحابَ والمطر، وقيل: الناشرات الملائكة تنشُر ما يأمرها الله بنشره في الأرض من الخير والبركات، وكلا القولين صحيح.

﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ٤﴾ أي: فالملائكة التي تُفرِّق بين الحق والباطل بما تُنزل من وحي الله وأمره وعقوبته.

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥﴾ أي: فالملائكة التي تُبلِّغ رسل الله الوحي الذي فيه تذكير العباد بما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦﴾ أي: تُلقي الملائكةُ الوحي إقامةً للحجة من الله على خلقه، وتحذيرا لهم من عذابه.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾ أي: إن الذي يعدكم الله به - أيها الناس - من البعث يوم القيامة والحساب والجزاء لثابتٌ، لا شك في وقوعه.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨﴾ أي: فإذا النجوم ذهب نورُها حين تتساقطُ يوم القيامة.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩﴾ أي: وإذا السماء انشقت، كما قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦﴾ [الحاقة: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ [النبأ: ١٩].

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾ أي: وإذا الجبال قُلِعت من أصلها بسرعة، وتفتت وصارت هباء، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ١٠٧﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾ أي: وإذا رسلُ الله جمعهم الله يوم القيامة في الوقت الذي أجَّله لجمعهم مع أممهم، للحكم بينهم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وقال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ١٢﴾ يعني: لأي يوم أخَّر الله الرسل للحساب والجزاء؟ ما أعظمَ يوم القيامة الذي أخَّر الله فيه الحساب!

﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ١٣﴾ أي: أخَّر الله جمع الرسل مع أممهم ليوم القيامة الذي يفصل فيه بين عباده، فيحاسبهم جميعا، ويجازي كلا بما يستحق.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ١٤﴾ يعني: وأي شيء أدراك - أيها الإنسان - ما عظمةُ يوم القيامة وشدةُ أهواله وأنت لم تر مثله؟!

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّب في الدنيا بالحق الذي جاء من عند الله، كالذين يُكذِّبون بتوحيد الله ورسله وكتابه والبعث بعد الموت.

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦﴾ أي: ألم نهلك الأمم الماضية المكذبين بآياتي ورسلي كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ ومن بعدَهم من الأمم الكافرة؟

﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧﴾ أي: ثم نُلحِق بكفار الأمم الماضية كفارَ هذه الأمة، فنُهلكُهم جميعا كما أهلكنا الأولين من قبلهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾ أي: كما أهلكنا الكافرين من الأمم الكافرة كذلك سنتي في إهلاك أمثالهم من الكفار الذين جاءوا من بعدهم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّب بالله وقدرته، وما أخبر به من إهلاك الأمم الماضية.

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾ أي: ألم نخلقكم - أيها الناس - من مَنِيٍّ ضعيفٍ حقير؟

﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢﴾ أي: فجعلنا نطفة المني مستقرةً محفوظةً في رحم المرأة إلى وقت الولادة الذي علِمه الله وقدَّره.

﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣﴾

أي: فقدَرنا على خلق النطفة إنسانا وتصويره كما نشاء، فنعم القادرون نحن على خلق الأشياء.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّب بأن الله خلق الناس من ماء مهين.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ أي: ألم نجعل لكم - أيها الناس - الأرضَ وعاءً تَجمعُ أحياءكم في البيوت، وأمواتكم في القبور، وتستر أذاكم في حال حياتِكم، وجيفكم بعد موتِكم.

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ أي: وجعلنا في الأرض جبالا ثابتات طوالا شاهقات.

﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ٢٧﴾ أي: وأسقيناكم - أيها الناس - ماء عذبا بالأمطار والعيون والأنهار، تشربون منه، وتسقون به زروعكم وأنعامكم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٨﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّب بنعم الله على عباده في خلق الأرض والجبال والماء، فكفر بالله ولم يشكره على نعمه.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩﴾ أي: يُقال للمكذبين بالبعث والحساب يوم القيامة: سيروا إلى ما

كنتم في الدنيا تكذبون به من عذاب النار.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠﴾ أي: يُقال للمكذبين يوم القيامة: سيروا إلى ظلِ دخانٍ يرتفع من جهنم ثم يتشعب إلى ثلاثِ فِرَقٍ عظيمة.

﴿لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١﴾ أي: دخان جهنم الصاعد منها لا يظِل الكفارَ ولا يريحهم من حر جهنم، ولا يدفع عنهم شدةَ لهبها الواصل إليهم وهم في أرض المحشر، كما قال تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤].

﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ٣٢﴾ أي: إن جهنم ترمي بشررٍ عظيمٍ يتطاير منها كالقصور العالية.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ٣٣﴾ أي: كأن الشرر الذي يتطاير من جهنم مثلُ الجِمال السود التي يَميلُ سوادُها إلى الصفرة.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٤﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّب بعذاب الله.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥﴾ أي: هذا وقتٌ لا يتكلم المكذِّبون فيه، وذلك في بعض مواقف يومِ القيامة.

﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾ أي: ولا يؤذن للمكذبين يوم القيامة فيعتذرون من ذنوبهم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٧﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّب بما أخبر الله عن حال الكافرين في الآخرة.

﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾ أي: هذا يوم القيامة الذي نحكم فيه بالعدل بين عبادنا، جمعناكم بقدرتنا.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: يقول الله للكافرين يوم القيامة: فإن كان لكم حيلة تتخلصون بها من عذاب النار فاحتالوا عليَّ بها، فلا مفر لكم من عذابي، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ [الرحمن: ٣٣ - ٣٥].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّب بما أخبر الله به عن الآخرة.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ أي: إن الذين اتقوا عذاب الله بامتثال الواجبات واجتناب الشرك والمعاصي يتنعمون في ظِلالٍ في الجنة، وأنهارٍ جارية، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: وفواكه طيبة كثيرة يأكلون منها ما تشتهيه أنفسهم.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: يُقال لأهل الجنة إكراما لهم: كلوا من فواكه الجنة واشربوا من أنهارها، بلا أذى ولا تنغيص فيما تأكلون وتشربون، جزاء لكم بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا من الأعمال الصالحة.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: إنا كما أثبنا الذين أحسنوا بالنعيم العظيم في الجنة كذلك نثيب الذين يحسنون في طاعة الله ويحسنون إلى عباد الله، ولا نضيع أجرهم في الآخرة.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّب بأن الله يُكرم المتقين في الجنة.

﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: يقول الله للمكذبين بالبعث: كلوا في الدنيا وتمتعوا قليلا إلى آخر أعماركم، إنكم مجرمون بكفركم ومعاصيكم، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّب بأن الله معذب الكافرين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨﴾ أي: وإذا قيل في الدنيا للمجرمين: صلوا، لا يُصلُّون لله، ويعصونه فيما أمرهم به من المحافظة على الصلاة! كما قال تعالى: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [القلم: ٤٣].

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٩﴾ أي: عذابٌ وخزيٌ يوم القيامة لمن كذَّبوا الله ورسله، ولم يمتثلوا أمر الله ونهيه.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠﴾ أي: فبأي تخويف وتحذير بعد القرآن يصدقون إن لم يصدقوا بكلام الله سبحانه؟!

المحتويات

تدبر سورة تبارك ٤

تدبر سورة القلم ١٠

تدبر سورة الحاقة..... ٢٢

تدبر سورة المعارج..... ٣٠

تدبر سورة نوح..... ٣٩

تدبر سورة الجن..... ٤٥

تدبر سورة المزمل ٥٤

تدبر سورة المدثر..... ٦٢

تدبر سورة القيامة..... ٧١

تدبر سورة الإنسان..... ٧٩

تدبر سورة المرسلات ٨٨

المحتويات ٩٤